الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

كليـــة: العلوم الإنسانية والاجتماعية

قســـم: الفلســـــفـة

فلسفـة التاريـخ

عند قسطنطين زريـق

مذكرة مكملة من مقتضيات نيل شهادة ماستر في الفلسفة

تخصص: فلسفة عامـــــة

✍ **إعـداد الطالبـة:**

✓ رداوي ابتســـام

– **إشراف الأستاذ:**

✍ د. بازة الحـــاج

السنة الجامعية: 2024 -2025

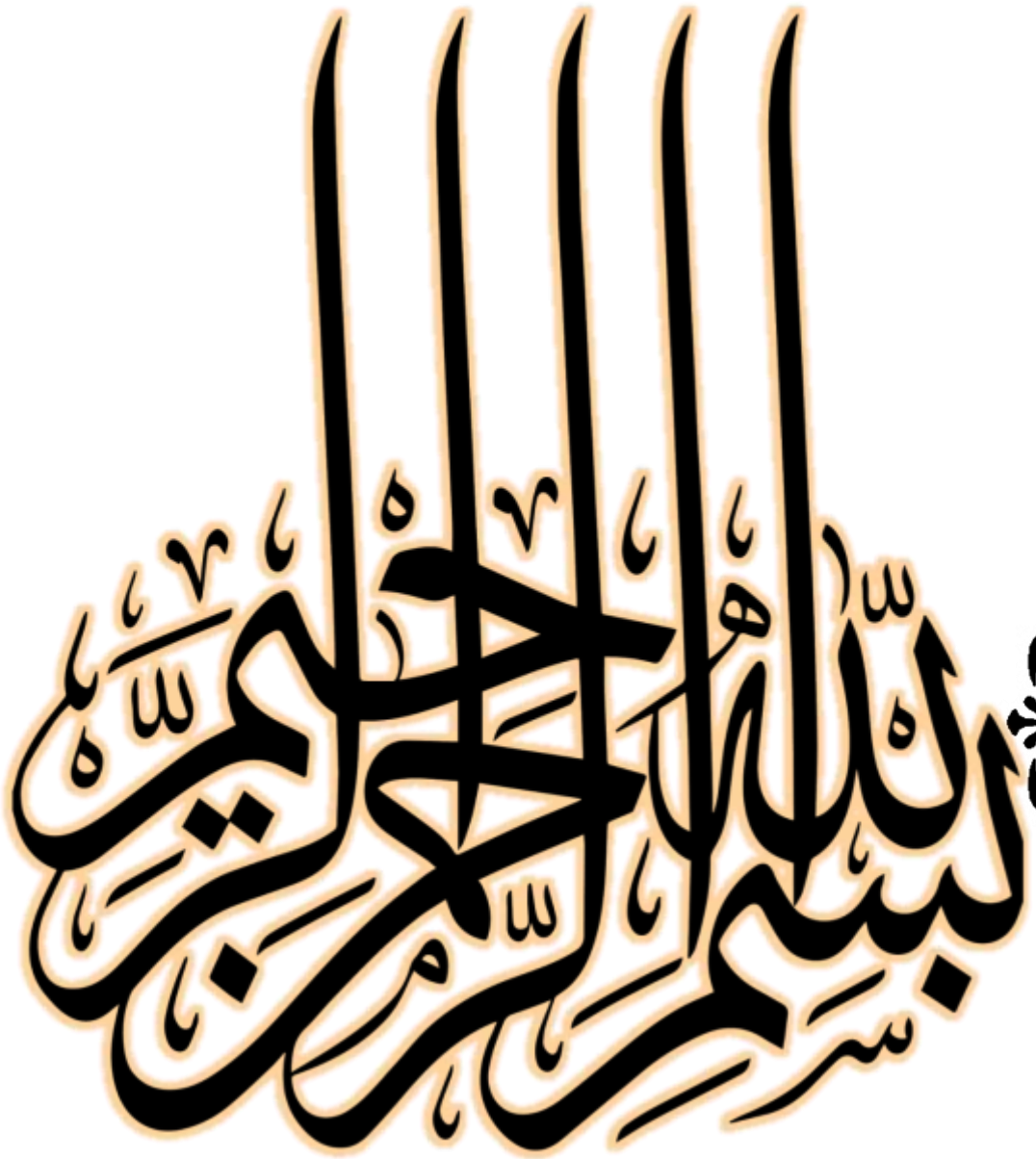
بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
University Mohamed Boudiaf of M'sila

مكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
Faculty of Humanities and Social Sciences
نيابة العمادة للدراسات والمسائل المرتبطة بالطلبة
Vice-Deanship of the College for Studies and Student Issues
الرقم: /2025

تصريح شرفي خاص بالالتزام بقواعد النزاهة العلمية لإنجاز بحث

انا الممضي (ة) ادناه ،

السيد(ة): زداوي ابتسام

الصفة (طالب، استاذ باحث، باحث دائم): طالبة

الحامل لبطاقة التعريف الوطنية رقم: 201554291

الصادرة بتاريخ: 2017-04-23 عن دائرة: مقرة

المسجل(ة) بكلية: العلوم الانسانية والاجتماعية قسم: الفلسفة

تخصص: فلسفة عامة تحت رقم التسجيل: UN2801202406064087588

والمكلف بإنجاز اعمال بحث (مذكرة التخرج، مذكرة ماستر، مذكرة ماجستير، اطروحة دكتوراه)

عنوانها:

فلسفة التاريخ عند قسطنطين زريق

اصرح بشرفي بانني التزم بالمعايير العلمية والمنهجية ومعايير الاخلاقيات المهنية والنزاهة الاكاديمية المطلوبة في انجاز البحث المذكور اعلاه.

المسيلة في: 09/04/2025

امضاء المعني (ة):

المرجع القرار الوزاري رقم: 933 المؤرخ في: 28-07-2016 المحدد القواعد المتعلقة بالوقاية من السرقات العلمية ومكافحتها

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
University Mohamed Boudiaf of M'sila
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
نيابة العمادة للدراسات والمسائل المرتبطة بالطلبة
Faculty of Humanities and Social Sciences
Vice-Deanship of the College for Studies and Student Issues

وثيقة ايداع مذكرة ماستر

الموضوع: فلسفة التاريخ عند مصطفى زايف

إعداد الطلبة:

1- رداوي ليتسام رقم التسجيل:

2- رقم التسجيل:

القسم: الفلسفة **الشعبة:** **التخصص:** فلسفة عامة

إشراف: د/ بازة الحاج **الرتبة:** أستاذ محاضر أ

أقر بأنني تابعت العمل المذكور أعلاه في جلسات إشرافية طيلة الموسم الجامعي، 2024-2025 وأسمح بإيداعه على مستوى ادارة القسم للمناقشة والتقييم.

موافقة وإمضاء الأستاذ(ة) المشرف(ة)،

بالموافقة

دكتور بازة الحاج

رئيس فريق الاختصاص

رئيس القسم

د. ارئيس علي

الإهـــدَاء

أهدي ثمرة جهدي إلـــــــــــى:

بلد المليون ونصف المليون شهيد وطنـــــــــي الغالـــــي الجزائر

إلـــــــــى من كانت شمعةً تحترق لتضيء دربي وتحملَّت من أجلي كل هوان

إلـــــــــى حضني الدافئ التي حضنتني بالدَّعوات،

وكانت عبرةً مُهرَاقةً لكلمات أملٍ ورجائي في الحياة فأخذت بيدي لمواجهة الصعوبات

فإليك أُهدي وكُـلُ إهدائي لكِ قليل

فلو أَهديت لكِ الدنيا بما فيها فلا مثيل

أمي سما اسمك في المعالي يا نبع روحي وفؤادي

يا من وَسَمك الرحمن في سطورٍ باسمك

" نصيـــرة"

إلى الذي رعاني منذ الصغر وكان معي بعطفه وحنانه مِقدامَا وسعى لراحتي لمواصلة مشواري الدراسي، إليك أهدي تاجَ رأسيٍ وعربون سعادتي أبي الغالي اسمك يبقى شامخاً في سمائي نَذُودُ إليها في كل نَاحٍ يا من

ازدان سجلنا باسمك "مسعود"

إلى الذين أحنُ إليهم في كل حين، وأتعطش لسماع صوتهم كل داعٍ

إلى من كانوا ذاتاً فأصبحوا أحجية رمز الصمود والتضحية، أخواتي أدام الله عزَّكم ورفعكنَّ مراتب عِليَّة

إلى رفيق دربي في الوجود وقلبي النابض في الحياة، يا من وَهبكَ القدير بعد حين لتوقد سراج النُّور في

حِمانَا، وجعلك قرة عيني في الدُّنى زوجـــي "رضـــا"

إلـــــــى أولادي حفاني بهم الله ثمرة فؤادي مصابيح بيتي

منصف، محمد أنس، منيب

شُكـــــر وعـــرْفان

الجدير بالشكر هو الله جلَّ في عُلاه الذي أنار لنا دروب المعرفة القائل في محكم تنزيله:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُم﴾ [سورة إبراهيم: 7]

والصلاة والسلام على رسوله الكريم ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين

نحمد الله تعالى الذي بارك لنا في إتمام هذه الدراسة

كما نتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى الأستاذ: "**بارة الحـــاج**"

لإشرافه على هذا العمل فله أخلص تحية وأعظم تقدير على كل ما قدمه لنا من توجيهات وإرشادات، وعلى ما خَصَنا به من جُهد ووقت طوال إشرافه على هذا العمل

كما لا ننسى جميل "الأستاذ رابح عباسي" وعلى ما قدمه لنا من توجيهات وأفكار هادفة

وإلى أساتذتنا "أعضاء لجنة المناقشة" على ما تجشموه في سبيل تنقيح دراستنا وعلى ما تفضلتم به لقراءة هذا العمل

مقدمة

مقدمـــــــة:

لقد شكلت التحولات الحضارية الجديدة مناخا فكريا لولادة أنظمة فكرية تتسم بطابع الذكاء والتعقيد والتكامل في الآن الواحد. وهذه الولادة الذكية جاءت تعبيرا عن وعي إنساني جديد يتميز بطابعه النقدي المتمرد. وفي هذا السياق يمكن أن نقف عند الاتجاه المستقبلي لقسطنطين زريق في إشكالية العلاقة بين العقلانية والذاتية وإشكالية التكاملية.

إنَّ الموقف الذي اتخذه قسطنطين زريق من التراث كان مرتبطاً برؤية مستقبلية وذلك من أجل بلوغ حقيقة مستقبلية انطلاقاً من العلاقة المتصلة بين الماضي والحاضر والمستقبل.

فالتراث جزءٌ من الماضي، والإسهام فيه خلاصة إبداعنا، وللإبداع حقيقة بجذورها الضاربة في التاريخ، فالقيمة المكنونة تكمن في الجهود الماثلة في الحاضر برؤية أثرها في المستقبل.

سعى قسطنطين زريق جاهداً لإعادة التجديد عراقتها بالتاريخ، محاولاً استقراء مفهومها من مفهوم التاريخ ذاته عند فيلسوف قسطنطين زريق.

وبهذا يمكننا صياغة الإشكالية التالية:

- هل أثرى قسطنطين زريق فلسفة التاريخ؟
- كيف كانت نظرته إلى الاتجاه المستقبلي؟ وما هي مضامين الاتجاه المستقبلي فيه؟

للإجابة عن هذه الإشكالية التي تم رسم معالمها بخطة ممنهجة مبتدئين فيها بمقدمة مستوفيةً لشروطها المنهجية المنصوص عنها، ثمَّ ثلاث فصول خاتمة، فالأول منها كان متضمنًا لمفهوم فلسفة التاريخ ومسارها في الفكرين العربي والغربي منه، أمَّا الفصل الثاني الذي تطرقنا فيه لملامح قسطنطين زريق في فلسفة التاريخ موضحين لموقفه من التراث، والفصل الأخير الذي احتوى تحديد ومفهوم التاريخ عند قسطنطين زريق، ثمَّ موقفه من نظريات تفسير التاريخ، وبعدها اختتمنا دراستنا بخاتمة شاملة لكل ما تناولناه في مضمونها، متبوعة بقائمة لأهم المصادر المراجع.

فعلى هذا الأساس كان اعتمدنا المنهج التاريخي التحليلي من خلال تقصينا لأهم النظريات فيها، بالإضافة إلى ذلك تمَّ الاستعانة بالمنهج المقارن من خلال عرضنا لبعض أفكار قسطنطين زريق وذكر مواطن تشابهها مع بعض المفكرين.

تكمن أهمية الدراسة الموسومة بـ: "فلسفة التاريخ عند قسطنطين زريق" في التعرف بشكل أوسع على دور المخصص لفلسفة التاريخ وتحدياتها في دراسة التاريخ والمستقبل، بالإضافة إلى معالجة الإشكالية المتضمنة لتساؤلات عن مصير الأمَّة العربية والإسلامية بهدف تحقيق النَّهضة.

كما تهدف دراستنا إلى إبراز رؤى وأفكار قسطنطين زريق للتاريخ والمستقبل على حدٍ سواء، وتوضيح دور النظريات المفسرة للتاريخ، هذا من الناحية الموضوعية، أمّا النِّسبة للدوافع الذاتية المتمثلة في رغبتنا في البحث لمثل هذا النوع، خاصة وأنَّه قد لامس مشكلةً فلسفية تمس راهن العصر، كذلك إثراءً لرصيدنا المعرفي في مثل هاته المواضيع، وتكون فيما بعد إضافةً هي الأخرى لمكتبتنا الجامعية لينهل منها الطلاب والباحثين فيما بعد.

فكما أنَّه أيُّ بحثٍ لا يخلو من صعوبات، وبهذا إلى قلة المصادر والمراجع المتعلقة بذات الموضوع، التي كادت أن تكون هاجسنا في الوصول لمبتغانا، في ظل ندرة البحوث والدراسات التي اهتمت بالبحث في النصوص فلسفة التاريخ، كما أنّنا لا نحوز على وفرة للمعلومات في غيرها من المدونات، أو البحوث الأكاديمية التي ترشدنا إلى ضالتنا في ستباق خطى الزمن، الذي كان حائلنا هو الآخر في البحث عن المادة المعرفية.

بالاستعانة **على الخبرات في الدراسات السابقة** التي تناولت مثل موضوع بحثنا والمتمثلة في:

دراسة عبد الرحمن بدوي لفلسفة التاريخ، بالإضافة إلى فلسفة التاريخ عند قسطنطين زريق، وكذلك مؤلفات عبد الرحمن ابن خلدون في التاريخ، وغيرها من المصادر والمراجع التي أثرت موضوع درستنا.

وفي الأخير ما يسعنا إلاَّ أن نحمد الله جلَّ في علاه ونشكره على سعة فضله وتوفيقه لنا على إتمام هذا البحث، كما نتقدم بخالص الشكر والتقدير لأستاذنا الفاضل "المشرف على

هذا العمل" وعلى رحابة صدره، وعلى ما قدمته لنا من توجيهات عملية ومنهجية. دون أن ننسى جهود **الأستاذ رابح عباسي** وعلى ما قدمه لنا من توجيهات وأفكار إثراءً لهذا العمل، وإلى أساتذتنا أعضاء لجنة المناقشة على ما تجشموه في سبيل تنقيح دراستنا وعلى ما تفضلتم به لقراءة هذا العمل، فنقول لكم منَّا الشكر ألفاً وبوركت جهودكم الوافرة والحثيثة.

الفصل الأول

مدخل مفاهيمي

❖ تمهيـــد:

✓ المبحث الأول: مفهوم فلسفة التاريخ

- مفهوم الفلسفة
- مفهوم التاريخ
- مفهوم فلسفة التاريخ

✓ المبحث الثاني: فلسفة التاريخ في الفكر العربي

- فلسفة التاريخ عند العرب القدامى
- فلسفة التاريخ عند العرب المحدثين

✓ المبحث الثالث: فلسفة التاريخ في الفكر الغربي

❖ خلاصـــة فصل

- **تمهيـــد:**

تتمثل الفلسفة التاريخية في التفكير الفلسفي، المؤكدة على أهمية التاريخ في حياة الشعوب والأمم، وعلى قيمة التاريخ، الذي يعبر عن وعي الذات لكينونتها وصيرورتها عبر محطات التاريخ وصناعتها له.

فالتاريخ يمثل حافظة الأمم، وسجل الزمان، وبه يعرف أخبار من غبر، وأحوال من مضى، ويستمد منه الناس معالم القوة لحاضرهم، وآفاق البقاء لمستقبلهم، ولذا، فقد كانت عناية الأمة به حاضرة، والأمر فيه بالغ لكينونته[1].

تبدو العلاقة بين الفلسفة والتاريخ علاقة تناقض، وتعارض؛ لأن أساس الفلسفة هو الكشف عن الحقيقة، بينما يُعرف التاريخ على أنه بحث، واستعلام. فالتاريخ يشير دوما إلى ما هو نسبي ومتغير بتغير الأحداث والوقائع، ولا تهتم الفلسفة إلا بما هو كلي، وثابت.

لقد أصبحت تلك الآليات التي أدت إلى تفعيل فلسفة التاريخ؛ سواء تلك التي حاولت إزالة اللُّبس والغموض عنها، أم تلك التي حاولت التجاوز في المضمون الفكري الجديد، فكان أكثر تعقيداً وأقْدَر على استيعاب السِّياق العام للأحداث التاريخية، في ظل المُتغيرات المعرفية لمختلف الأطر عبر تطور مراحلها التاريخية فيما عرفت بفلسفة التاريخ.

[1] أندري لالاند، **المعجم الفلسفي النقدي**، تعريب أحمد خليل، دار عويدات، بيروت – لبنان، ط 2، 2001، ص 558.

✓ المبحث الأول: مفهوم فلسفة التاريخ

إنَّ العلاقة بين الفلسفة والتاريخ لها عدَّة أبعاد، منها المنهج، والذي نقصد به المنهج التاريخي الفلسفي، كون هذا الاختلاف حول طبيعة المنهج، من خلال مواقف الفلاسفة المثاليين والوضعيين، ثمَّ جوهر الخلاف الأخر هو حول موضوع التاريخ، وحول مهمَّة المؤلف وطبيعة التاريخ، والمسألة الأخرى المتضمنة للمؤرخ وحكمه على الأحداث التاريخية المرتبط بجملة من الأحكام والفلسفات، خاصة الأخلاقية والسياسية منها.

أثار مفهوم فلسفة التاريخ قديماً وحديثاً اهتمام جمهرة من المؤرخين والفلاسفة*، وقد عَبَّرت تلك الإثارة عن نفسها، من خلال النتاج الواسع الذي تناول التاريخ كمصطلح، وفكرةً وفناً، وكميدان من ميادين البحث في المعرفة الإنسانية المستمرة.[1]

وفي بحثنا هذا سوف نقدم نبذة عن أهم رواد هذه الفلسفة الموسومة بفلسفة التاريخ، من الأوائل الذي استخدموا هذا المصطلح، بمقولاته ومنهجه القائم عليه، فالملاحظ والتأمل للتفكير الفلسفي أنه يهدف إلى إعطاء تفسير لحركة التاريخ المستمرة، العائدة من الفكر الكنسي، وللمعتقدات الدينية والطقوس القديمة، فهذا المصطلح يعود القديس أوغسطين وكتابه: "مدينة الله"، الذي عاصر تدهور روما، كما حاول في كتابه إعطاء التعليل حول ما وقع، وربطها بالفكر الديني، وإعطاء التاريخ تأويلاً فلسفياً.

في خضم حديثنا عن فلسفة التاريخ، يجدر بنا الإشارة أولاً إلى معرفة معنى الفلسفة أولاً؛ كمفهوم من جهة، ثمَّ التاريخ أيضاً من جهة أخرى، وهو الأمر الذي سنحاول توضيحه في هذا السياق.

---

* هذا الرأي تمثله النزعة الفلسفية "والتي تنظر للفلسفة دون اعتبار لتاريخها".

[1] عبد الرحمان بدوي، **موسوعة الفلسفة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1984، ج 1، ص409.

تكمن فلسفة التاريخ في كونها تهتم بالنظر فيما هو كائن، ومحاولة الانتقال به إلى ما ينبغي أن يكون عليه في صورته النهائية[1].

تتكون "فلسفة التاريخ" من كلمتين رئيسيتين هما:[2]

الفلسفة والتاريخ؛ يقصد "بكلمة الفلسفة" التأمل التجريدي للظواهر البشرية ومحاولة تفسيرها؛ أي أنَّ النَّظر وتجريد الظواهر من ملابساتها ثمَّ تحويلها إلى مفاهيم، بحيث يمكن استخدامها في سياقات أخرى.

أولاً- الفلسفة:

كما قيل: "بدأت الفلسفة باستفهام، وتركت الإجابة للعلوم".

ظهر في عصور خلت الكثير من الحكماء الذين كانوا يُلِمون بمعظم أنواع المعرفة؛ من الفلسفة والرياضيات، والفيزياء والكيمياء، وبذلك فأننا نقصد بالحكمة: المعرفة والوعي بوجود الإنسان على الأرض، وما يحيط به من مظاهر وظواهر كونية، أو كائنات حية أخرى.

لما تستخدم كلمة "**فيلا- صوفيا**" في العصور الأولى، ولا كلمة سوفوس الحكيم، وإنَّما استخدمت فقط كلمة صوفيا، عندما أطلقها الشاعر اليوناني هوميروس على نجار بارع، ثم أصبحت تطلق على كل بارع في فن من الفنون، وقد استعظم الإغريق أن يسموا أحدهم سوفوس الحكيم لأنهم اعتبروها من صفات الله، وأنَّ الإنسان هو فيلسوف فقط وينسب إلى فيثاغورس استعمالها لأول مرة.

تعرف الفلسفة بتعريفٍ أبجديٍ، من خلال ما عَرَفه الفلاسفة اليونانيين، على أنها؛ حبٌ الحكمة أو محبة الحكمة، كما مشتق من كلمة اللاتينية "philo"، التي تعني "حب"

---

[1] أندري لالاند، المرجع السابق، ص 560.

[2] جاسم سلطان، **فلسفة التاريخ، الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ، (مجلة مشروع النهضة سلسلة أدوات القادة)**، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، العدد 3، ط 4، 2010، ص21.

وكلمة" Sophia" التي تعني "الحكمة" وهو التعريف ذاته الذي عرفها به الفيلسوف الألماني "فريدريك نيتشه" في القرن التاسع عشر[1].

فالفلسفة في مدلولها العلمي العام تعني؛ "الاسترشاد بنظرة صحيحة إلى العالم، تمثل – هذه النظرة – مجمل المفاهيم عن الحياة في أبعادها الشاملة، بظواهرها وأحداثها، كِلاً على حدة، كما تبدو من خلالها على نظرة واحدة أحيانا.

تعود كلمة (فلسفة) في الأصل إلى مقطعين في اللغة اليونانية القديمة، هما (فيلا – صوفيا philosophia)، وفيلا تعني؛ (حب، محب، صديق)، وصوفيا تعني: الحكمة، وبذلك يمكننا أن نعرف الفلسفة في اللُّغة بأنها: حب الحكمة، كما تدل في ذلك على تلك الكلمتين.[2] أمَّا الحكيم: هو المُلم والعارف بكل صُنوف المَعرفة – ومن هنا – فإنَّ الشخص الذي يَلم بالمعرفة يُسمى بـ: حكيم أو محب الحكمة[3].

أمَّا عن كلمة "التاريخ" فهو علم التاريخ الذي يقوم على جمع وتدوين وتفسير الأحداث التاريخية. فعندما يفعل ذلك يبدو علماً سكونياً؛ كالجغرافيا الوصفية، ولكن عندما ينتقل لاستكشاف القوانين والاستفادة منها يتحول إلى علم حركي ديناميكي، كتحويل الجغرافيا إلى الجيوبولتيك*.

فعلى الرغم من أنَّ البعض ينظر إلى كتابة التاريخ على أنها لا يمكن ان تكون علماً، ولا يمكن إلاَّ أن صنعةً، أو فنًّا، أو فلسفةً؛ صنعت بتصعيد الوقائع، وفنًّا بإقرار نظام أي معنى داخل فوضى المادة، وفلسفة بالسعي وراء وجهة النظر والتنوير، إلاَّ أنَّ البعض لآخر

---

1 محمد جلوب الفرحان، **في الأبستمولوجيا الفلسفية العربية**، "**مجلة أوراق فلسفية جديدة**"، (مع هوامش شارحة للمنبت الفلسفي الأبستمولوجي)، ع 9، 2013، ص 23.

2 المرجع نفسه، ص 25.

3 عادل المخزومي، **مدخل الى فلسفة التاريخ**، د ط، مؤسسة صر مرتضى، بغداد – العراق، 2009، ص 22.

* الجيوبولتيك، أو "الجغرافيا السياسية"، تهتم بدراسة الإقليم وخصائصه وعلاقته. وطور المفهوم ليشمل فهم الجغرافيا كوسيلة لتحقيق طموحات الإقليم القومية، والسيطرة على مقدرات الآخرين وتسخيرها لمصلحة أمَّة معينة، ممَّا أعطى المفهوم بُعداً آخر.

يرى أنَّ "التاريخ علم ما في ذلك ريب، لأننا نستطيع أن نطلق كلمة علم على كل مجموعة من المعارف المحصلة عن طريق منهج ثابت وثيق للبحث في نوع معين من الوقائع ، فهو علم الوقائع التي تتصل بالأحياء من الناس في المجتمع خلال توالي الأزمن في الماضي ويدخل في عداد العلوم الوصفية"[1].

ثانياً- التاريخ:

ظهر هذا المعنى وتطور منذ أن ابتدعت اللفظة اليونانية "istoria" والتي تعود في ظهورها إلى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، وقصد بها في البداية البحث على الأشياء الجديدة بالمعرفة، فالبحث عنها يشترط الاستعانة بمناهج شتى وبطرق متعددة.

لقد انحصر المعنى العام في هذا على مرِّ الزمن، وصارت كلمةً دالةً على نوع واحد من المعرفة، ألاَ وهو معرف الأحداث التي وقعت في الماضي ورافقت تطور الأشياء والظواهر المختلفة.

كان أول من استخدم هذا المصطلح المؤرخين اليونانيين "هيرودوت وثيوكيديدس"، اللَّذيْن اقتصرَا مفهومه على تتبع الأحداث التاريخية التي صنعها الإنسان في الأزمنة الغابرة، محاولين في ذلك تمحيص هذه الأحدث وروايتها بالتقريب على نحوٍ ما وقعت عليه، فرواية الأحداث التاريخية لمهمَّة قد صاحبه رواية كل المظاهر الحضارية المصاحبة لها؛ من مختلف الديانات وأبرز الأحداث، والمعتقدات الشائعة من مظاهر الفن والعمارة، المتضمنة للأسطورة المعتمدة على الخيال، والمبتعدة عن الواقع في حين أنَّ التاريخ "عرض منظم ومكتوب في الغالب على الأحداث المتعاقبة، ومحاولة الكشف عن أسبابها، وبيان ما تتحمله من ترابط وتداخل في مجريات الأحداث والوقائع"[2].

---

[1] جاسم سلطان، مرجع سابق، ص 23.

[2] نبهان يحي محمد، **معجم مصطلحات التاريخ**، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، الأردن – عمان، د ط، 2006، ص86.

فالتاريخ هو جملة من الأحوال والحداث التي يمر بها كائن ما، وتصدق على الفرد والمجتمع، كما تصدق على الظواهر الطبيعية والإنسانية، والتاريخ عند هيغل "التاريخ جزء من الفلسفة، لأنه ليس مجرد دراسة وصفية، بل هو أقرب إلى التحليل وبيان الأسباب"[1].

إنَّ علم التاريخ هو مجرد طريقة علمية في البحث، أمَّا مضوعه فقد يتسم بالشمولية ليحتوي مختلف الظروف والمشاكل البشرية المعقدة، وكل ما يقع من الإنسان أو يقع عليه، وكل ما يبنيه أو يهدمه داخل حدود زاوية التاريخ.

يبحث علم التاريخ في الموجود من المخلفات سجلات الماضي، التي قد تعين بدورها على جلاء الحاضر وتوضيحه.

ثالثًا – فلسفة التاريخ:

ليس من السهل اعطاء تعريف جامع مانع ومتفق عليه لكلمة فلسفة، لأنَّ معنى الفلسفة يختلف باختلاف العصور والاختصاصات، لاسيما في العصور الحديثة، لذلك عرفها الفلاسفة والمفكرين بتعريفات مختلفة من أهمها:

يقصد بفلسفة التاريخ في الفكر الفلسفي على ما يبرزه التاريخ في حياة الشعوب والأمم، على قيمة الوعي التاريخي، الذي يعبر عن وعي الذات في التاريخ ومخرجاتها له.

لقد اختلف فيما إذا كان العرب أم الغرب، ممَّن كان لهم قدم السبق في ركوب مطايا الابتداع لاستخدام لفظة "فلسفة التاريخ"، للمؤرخ ابن خلدون أو فولتير، فنجد أنَّ ابن خلدون صاحب الفكرة كمعنى، وقد قصد بها البعد عن السرد، ومحاولة التعميم للأحداث التاريخية، وتمييز الظاهر والباطن، حيث نجده يقول: ظاهره لا يزيد عن أخبار عن الدول ... إلى أن يصل إلى قوله: وفي باطنه نظر، وتحقيق وتعميم للكائنات، ومبادئها دقيق. يقول بأنَّ الأخبار أعتمدها على مجرد النقل، ولم يقاس الغائب منها بالشاهد، فربما لم يؤمن العثور،

---

1 المذكور إبراهيم، **المعجم الفلسفي**، الهيئة العامَّة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة – مصر، د ط، 1402هـ– 1982م، ص 36.

ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، ويوصي بالحذر من الوقوع في الكذب، وقد صرح بأنَّ معظم الأخطاء أتت نتيجة النقل دون تدقيق[1].

قصد فولتير بهذا المصطلح؛ دراسة التاريخ من وجهة نظر الفيلسوف، أي دراسة عقلية ناقدة ترفض الخرافات، وتُنقِح التاريخ من الأساطير والمبالغات، قصد إلى تعديل التاريخ من التاريخ العسكري والسياسي إلى فلسفة الحضارة؛ أي التوسع من دراسة أخبار الوقائع إلى دراسة الحضارات[2].

ففلسفة التاريخ هو ذلك العلم الذي يحاول أن يكتشف القوانين الموجهة لحركة المجتمعات والدول والنَهَضَات، فيبحث عن أسباب صعودها ونزولها، فلا تكون وظيفة هذا العلم قاصرة على توصيف هاته القوانين فحسب، بقدر ما يسعى لاكتشاف القوانين أخرى، من أجل استخدامها وتوظيفها لمعالجة الظواهر القائمة والمستقبلية منها.

يمكن القول: "إنَّ فلسفة التاريخ في أبسط تعريف لها، أنَّها عبارة عن النَّظر للوقائع التاريخية بنظرة فلسفية، ومحاولة معرفة العوامل الأساسية التي تتحكم في سير تلك الوقائع، بالإضافة إلى العمل على استنباط القوانين العامة الثابتة، التي تطوَّر بموجبها الأمم والأجيال على مرِّ العصور"[3].

إنَّ هناك من يقول أنَّ التاريخ يسير وفقاً لمخطط معين، ليس بطريقة عشوائية، وأنَّ فلسفة التاريخ هي رؤية المفكر للتاريخ أو حكمه عليه.

كما تُبنَى فلسفة التاريخ على مقولتين رئيسيتين في معنييها العام والخاص هما:

1- مقولة الكمية: وهي التكامل بين الأجزاء، والترابط بين الوقائع، فالأحداث تبدو أمام المؤرخ لا رابط بينيا، ولذا يتطلب الوحدة العضوية بين الأجزاء، لأنَّ فلسفة التاريخ لا تقف عند عصر معين وإنَّما تضم كل العالم .

---

[1] جوستاف لوبون، **فلسفة التاريخ**، ترجمة عادل زعّتر، مؤسسة هنداوي للنشر، القاهرة – مصر، 2020، ص15.

[2] حسن عثمان، **منهج البحث التاريخي**، دار المعارف، بيروت – لبنان، 2015، ص19.

[1] رأفت غنيمي الشيخ، **فلسفة التاريخ**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، 1988، ص 37.

2- مقولة العلّية: وهي اختصار العلل الجزئية للأحداث إلى علة واحدة، يُفَسَر في ضوئها التاريخ العالمي، ومثال ذلك النظرية المادية التاريخية لماركس، الذي أرجع فيها الأحداث التاريخية إلى عامل واحد هو العامل الاقتصادي أو المادي، وقد شمل جميع العصور، ونتيجة لذلك ظهرت قضايا لفلسفة التاريخ[1].

[1] أحمد محمد صحبي، **في فلسفة التاريخ**، الإسكندرية – مصر، 1975، ص58.

✓ المبحث الثاني: فلسفة التاريخ في الفكر العربي

إنَّ من أبرز ما عَرفه النتاج في الفكر العربي، هو ما قد عُرف عند المفكرين والفلاسفة العرب، أمثال المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون، والسخاوي وابن الأثير والمقريزي وعشرات أعلام المؤرخين العرب وغيرهم.

لقد برع العرب في التدوين التاريخي الذي بلغ أوج قوته في الدقة والتمحيص، خاصة مع ابن خلدون بالضرورة الملحة المحضة الرامية لتحضر.

أولاً- فلسفة التاريخ عند العرب القدامى:

1- فلسفة التاريخ عند عبد الرحمن ابن خلدون*:

باعتبار أنَّ ابن خلدون أحد أبرز مؤسسي فلسفة التاريخ، فقد اتسمت كتاباته بالواقعية والاستقرائية، وهي سمتان مُؤَصِلَتان للتاريخ، كما أنه ابتعد عن الفلسفة بمفهومها التقليدي القائم عن الجدل، ولم تخضع آراؤه لمذهب فلسفي معين، فرغم ذلك لا تخلو آراء ابن خلدون من الفكر الفلسفي، إذا أخذنا في الاعتبار أنَّ نظريات فلسفة التاريخ هي الذي تقترب من التاريخ كثيرًا، في حين تكون فيه آراءً فلسفية بعدية؛ أي ليست مسبقة، وفقاً للمنهج الاستقرائي، كما أنَّ البعض الذين يعتبرونها من أهم الأسباب التي عنيت بتلك لكتابات، لاعتبارها تندرج في فلسفة التاريخ، لا علم التاريخ.

لقد سبق ابن خلدون الغربيين في موضوع فلسفة التاريخ، فطرح آراء حضارية تفسير التاريخ، وذكر أنَّ التاريخ يحمل في ثناياه معنى ظاهري، وآخر باطني (حقيقي)، وأنَّ الظاهري في مضمونه رسائل وروايات لسرد الأحداث والأخبار التي يصعب بين أجزائها، والمعنى الباطني القائم على دراسة الظاهرة التاريخية وإخضاعها لمبدأ التمحيص والتدقيق للتأكد ممن صحتها أول زيفها[1].

فكان للتأريخ المرآة العاكسة لوجه الحضارة وصيرورتها، التي اختلفت في وصفها النظريات الكبرى في فلسفة التاريخ.

علاوةً عن ذلك؛ المحاضرات والأطروحات التي قدمها حول قيام الحضارات وسقوطها، وهذا ما دعى البعض لاعتباره واحداً من كبار فلاسفة التاريخ الأوائل.

---

* هو أبو زيد ولي الدين ابن خلدون، ولد في تونس سنة (732هـ – 1332)، على الأرجح، وأصله من حضرموت، إلاَّ أنَّ أجداده نزحوا إلى بلاد المغرب العربي، أثناء الفتح الإسلامي للأندلس، استقرت أسرته في تونس منتصف القرن السابع هجري.

[1] مفيد الزيدي، **الاستشراق والتراث العربي نحو منهجية علمية**، **(مجلة اليرموك، أربد)**، ع 71، نيسان – أبريل، 2001، ص 75.

إنَّ الإبداع ابن خلدون وابتكاره لهذا العلم، الذي عرف في أوروبا في القرن الثامن عشر بفلسفة التاريخ، وفي القرن التاسع عشر باسم علم التاريخ أو المدخل إلى التاريخ، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك الاختراع أو الابتكار بأنه شيء جديد لـ يسبق إليه، مصرحاً بأنَّ له الفضل في ذلك، فيه يقول: "ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاما، وأعثرنا على علم بين بكره وجهينةُ خبره، فإنَّ كنت قد استوفيت مسائله، وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه، فتوفيق منَ الله وهداية. وإن فاتني شيء من إحصائه، وأشبهت بغيره مسائله، فللناظر المحقق إصلاحه، ولي الفضل لأني نهجت له السبيل، وأوضحت له الطريق، والله يهدي بنوره من يشاء"[1].

فالحق الذي لا جدال فيه أنَّ ابن خلدون لم يطلق عليه فلسفة التاريخ، بل سماه؛ "علم العمران، أو طبيعة العمران في الخليقة"[2].

لقد فصله في مقدمة تاريخه تفصيلاً قلَّ نظيره، وإن كان بعض الباحثين قد حاولوا، قبل ابن خلدون، الكتابة في شيء من هذا الجانب المعرفي إلا أنَّهم لم يوَفقوا في استجلاء ذلك كابن خلدون[3].

فابن خلدون أول من استخدم مصطلح "فلسفة التاريخ"، فقد قصد به البعد عن السرد وتسجيل الأحداث دون ترابط بينها، كما قصد به التعليل للأحداث التاريخية.

ميَّز ابن خلدون بين الظاهر والباطن في التاريخ، قائلا: إنَّ التاريخ" في ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول السوالف من القرون الأولى، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل

---

[1] عبد الرحمن ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، اعتنى به: أبو صهّب الكرم، ط 1، بيروت – لبنان، الأفكار الدولة، 2005، ص23.

[2] المصدر نفسه، ص25.

[3] روزنثال، فرانز، **علم التاريخ عند المسلمين**، تر: صالح أحمد العلي، بغداد، مكتبة المثنى، ونيويورك، مؤسسة فرانكلّن، 1963م، ص 165.

للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة، عريق، وجدير بأنَّ يعد في علومها[1].

فلسفة التاريخ عند ابن خلدون نظرية جديدة مستقلة، لكنها قد تلتقي مع بعض متمي الفلسفات الحديثة: كفلسفة هيجل، وماركس. لكنها تنهج نهجاً متميزاً بوصفها عطاءً، فكرياً نظرياً في مرآة فلسفة تاريخية ذات استيحاء واقعي، يمكن تسمية فكرها التاريخي بالتاريخ المنظور.

2- فلسفة التاريخ عند ابن حزم * (994هـ – 1064م):

حظي فكر ابن حزم باهتمام العديد من الدارسين والباحثين، فبالنسبة للجميع هو المفكر الموسوعي، الذي اتسع ادراكه كل ميادين المعرفة؛ من فقه، وكلام، وفلسفة التاريخ، ومنطق، وأخلاق، وأدب، وتاريخ للأديان[2]، وهو ذلك العالم الناقد، الذي عرف بمنهجه النقدي، وظاهريته الشمولية، التي جعلت منه مؤرخاً للتاريخ والدين معاً.

احتكم ابن حزم في تأريخه الفلسفي للفرق، والمذاهب الدينية، إلى المذهب السني، الذي يعتمد على صريح مقول الآية القرآنية، والحديث النبوي. وهو ما عرف بالمذهب الظاهري**، المتمسك الدلالة الحرفية للنص، ويتشبث بظاهره، مما يجعله مذهباً في التأريخ، الرَّافض للاستدلال، وجميع ضروب القياس، ويؤمن بالظاهر والدلالة الحرفية

---

[1] ابن خلدون، **المقدمة**، تح: عبد الله درويش، دار يعرب، دمشق – سوريا، ط 1، 1425هـ – 2004م، ص 15.

*هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن خلف بن سعد بن سفيان بن يزيد، مؤرخ أندلسي، ينتمي إلى المذهب الظاهري. أهم مؤلفاته: طوق الحمامة، الأصول والفروع.

نقلا عن: وديع واصف مصطفى، **ابن حزم وموقفه من الفلسفة والمنطق والأخلاق، المجمع الثقافي**، (أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة)، د ط، د ت، ص23 25.

2 سالم يفوت، **ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 0792، ص5.

**المذهب الظاهري، نسبة إلى داوود الأندلسي الملقب بالظاهري (212–291 هـ). نقلاً عن: سالم يفوت، المرجع نفسه، ص5

للألفاظ، فهو يستبعد الاحتكام إلى العقل في معالجة قضايا من قبيل الأسماء، والصفات، أو قضايا التجسيم، والتحيز (المكانية)، يقدم عليه الوقوف عند قول الحكيم المنان في الآية الكريمة: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11)**﴾[1].

من هذا المنطلق، نرى أن الحكم يستند إلى الشرع، فاسحاً المجال أمام النص في شكله ومظهره العام[2].

[1] القرآن الكريم برواية ورش عن نافع، سورة الشورى، الآية: 11.

[2] سالم يفوت، المرجع سابق، ص 6.

3- فلسفة التاريخ عند أبو البركات البغدادي: *(1119-1686)

طبيب وفيلسوف عباسي. احتل مكانة هامةّ ل في ت أن نجد له نظيرا عند غيره من اريخ الفلسفة العربية، فهو يتمتع بحس نقدي أصيل، ق فالسفة الإسلام، فقد استطاع أن يقف على مختلف التيارات والاتجاهات الفكرية في عصره، ويتضح ذلك جليا في كتابه "**المعتبر في الحكمة**"، فقبل أن يقدم لنا أبو بركات مشروعه الفلسفي، وموقفه النقدي من هذه الاتجاهات الفكرية المنحازة لتدقيق، في تاريخ وأسس هذه الاتجاهات، وينقدها ويؤرخ لها[1].

لقد تمكن البغدادي من إرساء دعائم المنهج النقدي والعقلاني، من خلال مؤلفاته، عن أصالة وعمق هذا الفيلسوف، فكان في تأريخه للفلسفة والأفكار، لا يدخل ضمن تحليل الأفكار مباشرة، وإنما كان يحاول أن يقف على مختلف التيارات والاتجاهات الفكرية؛ سواء كانت فلسفية، أو كلامية، أو صوفية.

ومن هذا المنطلق، نرى أنَّ أبو بركات البغدادي، قدم صورة واضحة ودقيقة في تأريخه لكل المذاهب، بمنهج عقلي نقدي يحلل ويفكر وينقد، ليصل إلى معرفة سبر أغوار هذا التأريخ الطويل والمعقد[2].

---

* هو هبة الله علي بن ملك، فيلسوف عربي، من أصل يهودي، اعتنق الإسلام على مذهب السنة، لقب بأوحد الزمان. أهم مؤلفاته: كتاب المعتبر في الحكمة. نقلا عن: جورج طرابيشي، المرجع سابق، ص36.

1 جمال رجب سيد، **أبو البركات البغدادي وفلسفته الإلهية**، مكتبة وهبة، القاهرة – مصر، ط 1، 1996، ص 13- 14.

3 المرجع نفسه، ص15.

** متكلم، ومؤرخ للأديان والنحل، ولد في شهرستان، ومات فيها، من أهم مؤلفاته: كتاب الملل والنحل. نقلا عن: جورج طرابيشي، المرجع سابق، ص404.

[22] عبد الكريم الشهرستاني، **الملل والنحل**، تح: أمير علـي، وعلي حسن فاعـود، دار المعرفة، بيروت – لبنان، د ط، د ت، ص6.

4- فلسفة التاريخ عند الشهرستانى* (1089 – 1153):

يعد الفيلسوف الشهرستانى سني أشعري، من أبرز مفكري العرب القدامى في تأريخ الفلسفة بكل فروعها وأقسامها، ويشمل هذا التأريخ الفرق الكلامية، وتاريخ الأديان، والمذاهب الفلسفية، فحاول أن يضع تأريخا شاملاً يسعى من خلاله الوصول إلى تلك السمات النقدية في عملية التأريخ[1].

يقول الشهرستانى "فلمَّا وفقني الله تعالى لمطالعة مقالات أهل العلم، من أرباب الديانات، والملل، وأهل النحل والملل، والوقوف على مصادرها، ومواردها، واقتناص وشواردها، أردت أن أجمع ذلك في مختصر يتضمن جميع ما تَدَين به المتدينون، وانتحله المنتحلون، عِبرة لمن استنصر، واستبصارًا لمن اعتبر"[2].

فمن خلال هذا المنطلق، نرى أن الشهرستانى أراد إقامة سرح فكري، بأسلوب سهل وميسر[3]، مما جعله يلق قبولا واستحسانا من لدن القراء، وهو ما يرجع إلى السمة الموسوعية التي كتب بها كتابه.

---

[1] عبد الكريم الشهرستانى، **الملل والنحل**، المصدر نفسه، ص7.

[2] المصدر نفسه، ص11.

* أديب، وروائي، ومؤرخ، وصحفي لبناني، أهم مؤلفاته : تاريخ التمدن الإسلامي، وتاريخ آداب اللغة العربية.

نقلا عن: محمد عبد الغني حسن، **جرجي زيدان**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، د ط، القاهرة – مصر، 1970، ص5.

ثانياً- فلسفة التاريخ عند العرب المحدثين:

1- فلسفة التاريخ عند جرجي زيدان*: (1861 – 1914)

يعد جرجي زيدان أحد أهم المؤرخين اهتماما بتاريخ الفكر الإسلامي والأدب العربي، وله في هذا المجال عدة مؤلفات، تدل على تشكل ذلك الوعي التاريخي نحو مسار التأليف، والتأريخ للفكر الإسلامي بصفة عامة، وكان يكتب ويؤلف بلغتين، وهما العبرية، والعربية، في بناءه لمسار التاريخ، شملت مؤلفاته كُتباً في التاريخ مثل: كتاب "العرب قبل الإسلام"، الذي كان باقة فكرية تاريخية، تعطينا المسوغات الأولية، للتعرف على كل المجالات الحياتية عند العرب قبل الإسلام"[1].

هذا من الناحية التاريخية، أمَّا في اللغة العربية وآدابها، فقد أرخ لتاريخ الأدب العربي في كتابيه؛ "الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية"؛ وكتاب "تاريخ آداب اللغة العربية"، هذا فضلا على أنه كان كاتب وروائي لديه عدة أعمال أدبية، ترجمت أغلبها إلى الفارسية والتركية، مثل رواية "عذراء قريش"[2].

---

[1] محمد عبد الغني حسن، **جرجي زيدان**، مرجع نفسه، ص5- 7.

[2] مرجع نفسه، ص8 – 10.

2- فلسفة التاريخ عند مصطفى صادق الرافعي:* (1880 – 1937)

يفتتح الرافعي مقدمة كتابه "**تاريخ آداب العرب**"، بقوله "فإنَّ للتاريخ علم قد كثرت عليه الأيادي، واضطربت فيه الأقلام، واستبقت إليه العزائم"[1].

وعليه فقد كان هذا الإبداع عبارة عن ثورة في مجال كتابة تاريخ الأدب[2].

من هذا المنطلق، نرى أن الرافعي ينظر إلى التاريخ على أنه علم مستهدف، من قبل كل الدارسين، هذا ما جعله يعرف اختلافاً وتبايناً في تأريخه، فازدات الكثرة إلى التأليف، والاهتمام بالكَم لا الكيف، ممَّا جعله ينتقل من الشعر وكتابة المقال، إلى التأليف، والتأريخ، منتهجاً الأسلوب النقدي، للرد على سابقيه، وهو بهذا يريد أن يعطي تاريخاً، صريحاً ودقيقاً للأدب العربي.

يقول الرافعي "... ولكني أريد أن أصرف الطريقة التي انتهجتها، وأبين لما خالفت القوم في نمط التأليف[3].

---

*أديب ومؤرخ مصري، ولد في قرية بهتيم بمحافظة القليوبية، عاش في طنطة، إلى أن توفي بها، من أهم مؤلفاته، تاريخ آداب العرب.

نقلا عن: مصطفى صادق الرافعي، **تاريخ آداب العرب**، راجعه وضبطه، عبد الله المنشاري ومهد البحقيري، مكتبة الإيمان، المنصورة، د ط، د ت، ج 1، ص3.

[1] المصدر نفسه، ص9.

[2] المصدر نفسه، ص14.

[3] المصدر نفسه، ص 13.

*مؤرخ وفيلسوف مصري، درس الفلسفة وتاريخها في الجامعة الإسكندرية، أرخ في ثلاث مجلدات الفلسفة اليونانية، تاريخ الفلسفة الأوروبية في عصر الوسيط، تاريخ الفلسفة الحديثة. نقلا عن: جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص520.

3- فلسفة التاريخ عند يوسف كرم: * (1886 – 1959)

لقد اعتنى يوسف كرم بدارسة تأريخ الفلسفة في ثلاثة مراحل، وهي الفلسفة اليونانية، وفلسفة العصر الوسيط، والفلسفة الحديثة، وهو في تأريخه، لا يقتصر على سرد آراء الفلاسفة السابقين، وإنما كان يسردها بعد أن يعيد إليها الحياة، التي كانت لها حين خرجت من عقل الفيلسوف في بيئة معينة وعصر معين، وهو لا يقف عند هذا الحد، وإنما هو يتجاوزه إلى التعقيب بالتأييد، أو التفنيد بمنهج عقلي معتدل.

إنَّ يوسف كرم في عرضه لمذهبه لا يجري على نهج القدماء، ولا على نهج المحدثين، وإنَّما بمنهج عقلي نقدي لكل تأريخ للفلسفة، فهو يحلل ويبني الأفكار بعد وضعها في ميزان العقل المعتدل، ليضع القارئ العربي أمام تاريخ الفلسفة، وضعاً معمقاً وواضحاً، وسهلاً في متناول الجميع[1].

ففلسفة التاريخ من وجهة نظر المؤرخين هي لحظتا الماضي والحاضر، فأقصى ما يطمح إليه المؤرخ هو أن يفهم الحاضر من خلال أحداث الماضي أساس مبدأ العلية العلمية، بينما يرى الفيلسوف التاريخ في مستوياته ثلاث من الزمن؛ الماضي والحاضر والمستقبل ..."[2].

وبهذا يتجاوز فيلسوف التاريخ المؤرخ، فهو لا يتأمل أحداث الماضي لفهم الحاضر فحسب، وإنمَّا يتجوزها إلى أبد من ذلك، كقراءة أحداث المستقبل أيضاً، ومن هنا تكمم فلسفة التاريخ في ترقي وصناعة المشاريع الحضارية.

---

1 جورج طرابيشي، مرجع سابق ، ص520.

2 النشار مصطفى، **فلسفة التاريخ**، (**مجلة سلسلة الشاب، شهرية**)، ع 14، ط1، شركة الأمل للطباعة النشر، 2004، ص27.

✓ المبحث الثالث: فلسفة التاريخ في الفكر الغربي

مع بداية النهضة الأوروبية في القرن 15م، عرفت الكتابة التاريخية أول تأسيس علمي لها على يد الإيطالي جون باتيستا فيكو، حيث حاول تخليص التاريخ من السيطرة اللاَّهوتية على منهاجه، وقد تطورت الكتابة التاريخية إلى أن انفصل التاريخ عن الفلسفة في النصف الثاني من القرن 19م، وانبثاق الكتابة التاريخية ذات الطابع العلمي، قد ارتبطت بعلمية التاريخ من حيث تطبيقها للمنهج الاستقرائي التجريبي، "فالتاريخ هو أقدم علم إنساني في كلمة تدل معنيين عند أغلب الشعوب، فما وقع للإنسان في الماضي، وما أَرَخهُ الإنسان عليه، يجعلان هذان المعنيان أكثر استخداماً عند المؤرخين..."[1].

إنَّ الترجمة الواقعية لهذا المعنى في فلسفة التاريخ، عبرت عنه عدَّة مدارس، مثلت اتجاهات متباينة في طبيعة لتعاطي مع هذه الممارسة النبيلة، ففي هذا السياق وصف للتاريخ قدَّمه المفكر التونسي هشام جعيط في كتابه الفتنة "التاريخ يولد من رحم الفتنة"، وهذا يعني في النهاية أنَ التاريخ بمثابة المرآة العاكسة للأوقات العصيبة المشحونة بالصراعات المترجمة لجدلية الأنا والغير التي كانت ولا زال تبحث لها عن تجاوز.

يرى البعض أن أصل مصطلح فلسفة التاريخ يعود إلى المفكر الفرنسي "فرنسوا فولتير"، الذي استخدم مصطلح فلسفة التاريخ في كتاباته ومقالاته المدونة في كتابه: "التأملات الفلسفية في تاريخ الإنسانية"، على أساس أنه أول من أراد إعطاء تفكير فلسفي بأسلوب نقدي[2].

منهم من يرى بأنَّ الفيلسوف الإيطالي "جيوناني فيكو"، حاول أن ينقل مفهوم التاريخ من النزاعات المستمرة على الدرس والتدقيق، بإصدار الأحكام عليه، فحاول فيها تقديم تفسير لقيام وسقوط الحضارات، أمَّا عن الألماني "جيوهان هيردر"، الذي ساهم في إعطاء تفسير

---

[1] التيمومي الهادي، **مفهوم التاريخ وتاريخ المفهوم**، دار محمد علي للنشر، تونس، ط 1، 2003، ص 11.

[2] أحمد محمد صبحي، مرجع سابق، ص 49

جديد للتاريخ، من خلال سيرها ضمن قوانين خاصة؛ كقوانين الطبيعة، والمدونة في كتابه: "التاريخ الفلسفي"[1].

لقد تعددت الشخصيات وتنوعت في ميدان دراسة فلسفة التاريخ في الحضارة الغربية. ولعل أبرز هذه النماذج:

أولاً- فلسفة التاريخ عند فولتير:

يعد فولتير أول من صاغ واستخدم مصطلح فلسفة التاريخ في القرن 18، كَونُها فرع جديد من فروع المعرفة الإنساني؛ تدرس التاريخ دراسة عقلية ناقدة ترفض فيه الخرافات والأوهام، والأساطير والمبالغات، وقد قصد بها دراسة التاريخ من وجهة نظر الفيلسوف، بمعنى دراسة تحليلية نقدية تغربله من الخرافات والأساطير، والمعتقدات الخاطئة، وتخضعه لسلطان العقل.

لم يقصد فولتير لاستخدامه مصطلح فلسفة التاريخ أن ينشئ فرعاً من فروع الدراسات الفلسفية، أو التاريخية المستقل بذاته، وإنَّما أراد أن ينبه المؤرخين من حيث مباحثه ومقوماته، إلى ضرورة استخدام منطق الفلسفة العقالين في دراسة التاريخ، من أجل نقد الروايات والأخبار التاريخية وتنقيتها، مما دخل فيها من خرافات وأساطير، وكل ما لا يتفق مع حكم الواقع والعقل[2].

دعا فولتير إلى ضرورة تطبيق الفلسفة على التاريخ أي ضرورة تتبع العقل النقدي من وراء الأحداث السياسية، حيث يقول: "لا ينبغي أن يكتب التاريخ سوى الفلاسفة، فلقد شوهت الأساطير التاريخ عند كل الشعوب"[3].

---

[1] آدموندولسون، **تاريخ الفكر الاشتراكي المعاصر من فيكون إلى لينين**، تر: يونس شامنس، د ط، بيروت – لبنان، 1972، ص 125.

2 هاشم يحي المالح، **المفصل في فلسفة التاريخ**، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط7، 2001، ص3.

3 المرجع نفسه، ص 8.

أوضح أنَّ هدف فلسفة التاريخ هو اكتشاف الحكمة، أو المعنى الذي تتحرك به أحداث التاريخ من أجل تحقيقه لأنه وجد أن ما يكتبه المؤرخون لا يحقق هذا الغرض.

ففلسفة التاريخ عند فولتير تقوم على رفض أن تكون دراسة التاريخ مجرد أكوام مترامية من الحروب، أو المعاهدات السياسية دون معنى مفهوم، أو حكمة بادية، وهدفها هو تنقيح التاريخ والوصول إلى تعديل طبيعة الدراسة التاريخية من التاريخ السياسي والعسكري، إلى فلسفة الحضارة وتحرير الفكر الإنساني من اللامعقول والخرافة، من أجل نشر الحرية وتنوير العقل.

لقد حاول فولتير أن يكتب فلسفة التاريخ من منظور عالمي حضاري، فلا يكون التاريخ حكراً على تاريخ أوروبا، لذا عمل على الاهتمام بفلسفة تاريخ الشعوب القديمة، ونَبَه إلى ضرورة العناية بالشعوب البدائية، فقد ضم كتابه؛ "**مقالة في سلوك الأمم وروحها**" أخباراً عن العرب والصينيين، بل وحتى بعض الشعوب من الهند، دون أن يحدد هو نفسه صورة واضحة من وراء ذلك الإخبار، وإنَّما أبرز فكرهم وفنَّهم، بل وحتى أحوالهم الاقتصادية والسياسية، وإن كان بدرجات متفاوتة، ما دفع بالبعض أنَّ كتابه هذا، شكَّل بداية التأسيس لتاريخ الحضارة[1].

عاب فولتير عن المؤرخين السابقين فكرة إقصائهم لتاريخ بلاد الشرق، وبحسبه أنَّ للحضارات الشرقية قد مثلت روافد للحضارة الأوروبية، بما أنَّ الجميع ساهم في صناعة التاريخ العالمي ولا يمكن بأي حال من الأحوال قراءة التاريخ من منظور المركزية الغربية كما فعلت الكنيسة.

"لقد كتب فولتير نوعاً جديداً من التاريخ العالمي... كانت فصول تاريخ العالم المسيحي تتناوب هي والفصول الخاصة بالصين والهند وهكذا ... وما يستحق التنويه، أنَّ فولتير قد وضع الصين كنموذج لأوروبا والأوربيين، في الأخلاق، والدين والحكومة، وحتى

1 رأفت غنيمي الشيخ، مرجع سابق، ص 108.

في السلوك العام، إن لم يكن في العالم[1]. فيبرز هذا الطرح الموضوعية التي تميزت بها مواقف فولتير في كتاباته التاريخية.

إنَّ فلسفة تاريخ عند فولتير تتضح من خلال إشارته إلى تقدم العقل عبر حقب التاريخ دون استثناء، مشتملاً هذا التقدم على كل الحضارات العالمية، "التاريخ اليوناني القديم، ثم تاريخ الدولة الرومانية إبان ازدهارها الحضاري ثم عصر النهضة، وأخيراً عصر التنوير الذي كان يعيش فيه[2].

نفهم من ذلك أنَّ أساس فكرة التاريخ العالمي عنده هي إسهام الحضارات الشرقية منها والغربية في بناء حضارة عالمية، كل من انجازاته وآثاره بما في ذلك الشعوب البدائية الأولى.

لقد آمن فولتير بأنَّ دراسة الحضارات البد ألا تجعلنا نقتصر على دراسة تاريخ أوروبا فقط، بل العكس البد وأن نعيد تقويم التاريخ الأوربي استنادا إلى مكان العقل في كل حقبة من حقب هذا التاريخ، ففي ذلك نكتشف دور الحضارات الشرقية في تقدم الحضارة الأوربية[3].

"كما أنَّ الفيلسوف الفرنسي فولتير أول من صاغ مصطلح "فلسفة التاريخ" عند الأوروبيين في القرن الثامن عشر"[4].

إنَّ الأبحاث التي أجراها فولتير، في مجال فلسفة الحضارة، دفعت به إلى بلورة نظرية التقدم في التاريخ، وتلك هي موضوع المطلب الموالي.

---

[1] فرانكلين بارو، **الفكر الأوربي الحديث في القرن الثامن عشر**، ترجمة أحمد حمدي محمود، د ط، ج 2، 1988، ص28.

[2] هاشم يحي المالح، مرجع سابق، ص299.

3 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4 رأفت غنيمي الشيخ، مرجع سابق، ص 109.

ثانياً- فلسفة التاريخ عند برتراند راسل* Bertrand Russell (1872-1970):

فيلسوف رياضي، إنجليزي. عالج مشكلة تاريخ الفلسفة، ورأى أن مهمتها ليست تحصيل مجموعة من الحقائق، مثل سائر العلوم، بل هي البحث فيما لم يتيسر الحصول عليه بجواب[1].

يقول الإنجليزي راسل "إنَّ المسائل الممكن تحصيل أجوبة نهائية عنها توضع في العلوم، بينما تلك التي لم تحصل على جواب نهائي عنها حتى الآن سوف تكون البقية – الأسئلة العالقة – الفلسفة[2]".

إنَّ ماهية الفلسفة في منظور راسل هي أسئلة عالقة، وماهية العلوم أسئلة حصلت على إجاباتها الضرورية. ومن هذا المنطلق، نرى أنَّ كل موضوع يمتلك مجموعة من الحقائق حول موضوع ما، لكن سرعان ما يستقل عن الفلسفة، ويلتحق بمجموعة العلوم.

أمَّا المنهج الذي يقترحه راسل للبحث، هو معرفة العالم الخارجي بكل مكوناته، فيعتمد على المنهج التحليلي المنطقي (Analytic Logical of Method)، كما يعتمد على طبيعة العالم الخارجي، والعلاقة بين عالم الفيزياء الموضوعي المحسوس، وعالمنا الذاتي الموجه لإدراك العام[3].

تُعبِر كتابة الفيلسوف لتاريخ فلسفي، عن" تجربة فكرية شيِّقة، تحتشد باللَّمحات الذكية والملاحظات المعمقة، بالقدرة على كشف الروابط والعلاقات، التي يعجز عن إدراكها الذهن العادي، وعلى هذا النحو نرى راسل في كتابه "**تأريخ الفلسفة الغربية**"، يعرض

---

*ولد في رافنسكروفت بمونموتشاير، وتوفي في شمال مقاطعة الويلز، رائد الوضعية المنطقية ورياضي وهندسي كبير، أهم مؤلفاته: تاريخ الفلسفة الغربية في جزئين، المنهج العلمي في الفلسفة.

نقلا عن: جورج الطرابيشي، **معجم الفلاسفة**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط3، 2006، ص318.

[1] عبد الرحمان بدوي، **نيتشه**، وكالة المطبوعات، الكويت، ط 5، 1970، ص519.

[2] المصدر نفسه، ص519.

[3] المصدر نفسه، ص520.

وبمنهج تاريخي. مسار تاريخ الفلسفة الغربية منذ بدايته الأولى في العصر اليوناني، حتى النصف الثاني من القرن العشرين[1]".

يحرص راسل على وضع أفكاره في سياقها التاريخي، والاجتماعي، في كتابه "**تاريخ الفلسفة الغربية**"، الذي أراد منه إعطاء لمحة شاملة عن تاريخ الفلسفة، من الفكر اليوناني، إلى فكر العصور الوسطى، والفلسفة الإسلامية. وهذا النتاج الفكري الفلسفي الموسوعي، يعبر عن مرحلة النضج لتفكير راسل، ممَّا يعطي للقارئ رؤية شاملة لأهم معالم عصور الفكر؛ لا سيما إذا عَلمنا أنَّ علاقة راسل بالفلسفة تُعبر عن علاقة بين المنطق، والرياضيات.

لقد كان راسل يؤرخ لجميع ميادين المعرفة، وينطلق في بحثه لمعرفة المجهول من أسئلة تاريخية، لينتهي إلى تأمل عقلي يستكشف ويستطلع[2].

1 برتراند راسل، **حكمة الغرب**، تر: فؤاد زكرياء، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ج 1، د ط، د س، ص 5-6.

2 المصدر نفسه، ص 10، 12.

ثالثاً- فلسفة التاريخ عند إميل برهييه* Brehier Emile (1781-1591):

استهلَّ إميل برهييه مسألة الفلسفة التاريخ بقول (**أمرسون**** **Emerson**) على لسان الطبيعة: "حذاري أنَّ تؤمن بالماضي! فأنا أعطيك العالم جديداً"[1]، ويرد إميل على هذا القول، بقوله: "صحيح أنَّ أسباباً كثيرة قد تحمل المرء على قيم الماضي، ولا سيما إذا ما ادعى أحقيته أن يستمر في الحاضر، أو أن يتأبد في الأزل، كما لو أنَّ مجرد الديمومة تكسب صاحبها حقا، غير أنَّ التاريخ على وجه الدقة، هو ذلك العلم الذي يُرَى إلى الماضي من حيث ما هو مَاضٍ، والذي كلما أُوغل فيه أكثر أرى فيه كل آن أصالةً مُنقطعةَ النِّد لن تتكرر ثانية"[2].

يمكننا القول من خلال ما قيل، أنَّ برهييه ينظر إلى تاريخ الفلسفة على أنه المحور الحقيقي، والوحدة التي يمكن لها أن تُطوِّر العقل البشري، بالرغم من الصعوبات والتعقيدات الموجودة في النصوص الفلسفية لكثرتها وتنوعها، إلا أن تنظيم وتصنيف هاته النصوص بالرجوع إلى مهد الفلسفةً ومراحل تطورها في العصر الحديث، والمعاصر، تعطينا فكرة الجديدة لفهم فروع الفلسفة على مرِّ التاريخ، فهذا التاريخ الطويل والعميق حسب برهييه،

---

* فيلسوف، ومؤرخ للفلسفة، ولد في بار- لو- دوك، وتوفي في باريس، أستاذ في السوربون، ورئيس تحرير للمجلة الفلسفية، وعضو في أكاديمية العلوم الأخلاقية، والسياسية. من أهم مؤلفاته: تاريخ الفلسفة في سبعة مجلدات، فلسفة أفلاطون. نقلا عن: جورج طرابيشي، المرجع السابق، ص 170.

** رالف والدو إمرسون Emerson Waldo Ralph: 1803-1882 أديب وفيلسوف وشاعر أمريكي. أبرز أعلام الفلسفة المثالية في القرن التاسع عشر. وكان من دعاة الفردية.

نقلا عن: رالف والدو أمرسون، **مقالات أمرسون السلسلة الأولى والثانية**، تر: أمل الشرقي، دار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1999، ص 5.

1 إميل برهييه، **تاريخ الفلسفة اليونانية**، تر: جورج طرابيشي، ج 1، دار الطليعة، بيروت - لبنان، ط 1، 1982، ص5.

2 المصدر نفسه، ص5.

يجب أن يُبنى على أساس التسلسل الدقيق والعميق، لفهم خصوصيات الفكر الفلسفي، لتعطي القارئ صورة واضحة وشاملة لتاريخ الفلسفة[1].

رابعاً– فلسفة التاريخ عند والتر ستيس: *Walter Stis (1886 – 1967)

يذكر في كتابه "**تاريخ الفلسفة اليونانية**" "أنَّ تاريخ الفلسفة لم أكتبه فقط للقراء والمختصين، وإنَّما هو تاريخ لعامَّة الناس من أجل القراءة والاستطلاع"[2].

من هذا المنطلق، نرى أن ستيس أراد من تأريخه للفلسفة، أن يجعله في متناول أكبر قدر من القرَّاء؛ من المختصين، وغيرهم، وذلك بالاعتماد على منهج تاريخي، فيُعرِّف للعامة بتسلسل الأفكار الفلسفية وتطورها.

كما اضطلع بمهمة شرح المصطلحات الغامضة، وتقريب معانيها، فضال عن الاهتمام بالجانب التراثي، واعطائه صبغة جديدة متجددة "لنسلط الأضواء في بؤرة واحدة" على حد تعبيره[3].

إنَّ الاعتماد على فرضية تسليط الأضواء في بؤرة واحدة، يخدم بلا شك غرض المؤرخ للفلسفة، فالآراء الفلسفية التاريخية عنده التي تبدو متضاربة، لا يمكن تبسيطها، وعرضها بوضوح للجماهير التي تطلب الثقافة بوجه عام، إلا من خلال الجهد الذي يبذله مؤرخ الفلسفة، بوصفه جهداً للشرح، والتحليل.

---

1 إميل برهييه، **تاريخ الفلسفة اليونانية**، المصدر نفسه، ص 6-7.

*فيلسوف ومؤرخ فلسفة إنجليزي، اهتم بالفلسفة المثالية الألمانية، ومن أهم كتبه، تاريخ الفلسفة اليونانية، التصوف والفلسفة نقلا عن: والتر ستيس، **التصوف والفلسفة**، تر: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، 1999، ص6.

2 والتر ستيس، **تاريخ الفلسفة اليونانية**، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، 1894، ص7.

3 المصدر نفسه، ص 9 – 10.

خامساً- فلسفة التاريخ عند هيجل * (1770 - 1831)

ظهر الفيلسوف الألماني الشهير "هيغل" في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، الذي سعى إلى وضع منهج منظم وأوضح ممَّا أرخه سابقيه من الفلاسفة، فقد كانت إرهاصاته انطلاقاً من محاضرات ألقاها في جامعة برلين، والتي جمعت فيما بعد في كتابه: "محاضرات في فلسفة التاريخ"، الذي حاول فيه أن وضع برنامج عام حول نظرته للتاريخ في معناها الشامل، وليس من كونها أحداث تاريخية عابرة، بقدر ماهي أحداث تبنى على أساس التناقض، عدَّه تاريخ البشرية القائم على مبدأ الحرية والتقدم[1].

لربما كانت فلسفة التاريخ عند هيجل هي النظرية الفلسفية الأكثر نضجًا، والتي تحاول كشف معنى التاريخ ومساره.

إنَّ تفسير التاريخ عند هيجل صيرورة فكرية، بنظرة مستقلة لكل فترة باعتبارها وحدة قائمة بذاتها تتجه إلى الأمام صوب غاية معلومة وهي تحقيق الحرية الإنسانية، التي تمخضت عن جملة من الملامح السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والثقافية والعقلية ودينية المؤدية في النهاية إلى كيان متجانس[2].

ومن ديمومة طرح الأفكار ونقائضها يتقدم البشر طوراً بعد طور في سلم النهوض والتقدم، فهو من هنا يتكلم عن صراع الأضداد في الأفكار، وككيفية توليد الأفكار الجديدة.

---

*هو جورج ويلهلم فريدريك هيغل، ولد سنة 1770م، في مدينة شتوتجارت الألمانية، كان والده مواطن بسيط وأمه ذات الثقافة واسعة، تشبع بالأفكار الفلسفية فصقل شخصيته في المرحلة الثانوية، مما آل به للعمل في الثانوية العامة، ثمَّ أستاذًا في جامعة هيدلبرج، فجامعة برلين التي ظل يعمل بها حتى وفاته.

[1] غانم محمد الحفو، "**محاضرات في فلسفة التاريخ**"، ألقيت على طلبة السنة الثالثة، كلية الآداب – قسم التاريخ، جامعة الموصل، 1986 – 1987.

[2] دانييل ليتل، **فلسفة التاريخ**، تر: طريف السليطي، **(موسوعة ستانفورد للفلسفة الموسوعة)**، دار الحكمة، 2020، ص43.

قال هيجل: "إنَّ السؤال حول هذه المسألة يخص النهاية القصوى للبشرية، هذه النهاية حيث تَحِل الروح في العالم"[1].

في كل فترة منن الزمن – عند هيغل – تولد فكرة رئيسية وكل فكرة تولد على نقائض غيرها وأضدادها، ثمَّ يستمر ذلك الصراع بشكل آلي متلاحق مع الزمن في إطار ما يسمَّى بفلسفة التاريخ، فبها تتحدد التناقضات مولدة المجموع الحي من الأفكار المندفعة مرة أخرى لحده الأقصى حتى يصل إلى المطلق منه، ففلسفة التاريخ عند هيغل هي مزيج من التناقضات[2].

تتضمن فلسفة هيجل نزعة تاريخية عميقة أكثر من سابقيه وُمن أتى بعده. إنه يعتبر العلاقة بين التاريخ " الموضوعي " والتطور الذاتي للوعي الفردي متناغمة وواحدة، وهذه هي أطروحته المركزية في فينمنولوجيا الروح.

يقول عبد الرحمن عبد الله الشيخ في كتابه: "المدخل إلى علم التاريخ"، يرى هيغل: "أنَّ كل عصر من العصور التاريخية يمثل وحدة مستقلة بكل أبعادها الفلسفية والتاريخية الدينية والاجتماعية والأخلاقية والثقافية، وأنَّ هذه الوحدة التي ينطوي عليها في طيَّاتها تناقضات عدَّة تتعايش معًا لفترة من الزمن، ثمَّ تنبجس منها فكرة جديدة تمثل عصراً تاريخياً آخر جديداً، بتناقض العصر الذي سبقه، وهذا العصر الجديد يخرج منه عصر آخر مناقضاً له بروحٍ مختلفة"[3].

هكذا كان فلسفة هيغل في الحياة، وفي نظرته للبُنَى الفكرية السائدة التي يبدع منها فلسفة تاريخية جديدة ومتجددة، ومستمرة بتناقضاتها وضدياتها المنبجسة منها كفكرة وهكذا،

---

[1] عطيات أبو السعود، **فلسفة التاريخ عند فيكو**، د ط، مؤسسة الهنداوي، المملكة المتحدة، 2021، ص 175.

[2] هيغل، **العالم الشرقي، محاضرات في فلسفة التاريخ**، تر: إمام عبد الفتاح إمام، مج 2، دار التنوير للنشر، المكتبة الهيغلية، ط 3، بيروت – لبنان، 2007، ص 67.

[3] عبد الرحمن عبد الله الشيخ في كتابه: **المدخل إلى علم التاريخ**، دار المريخ، جامعة الملك سعود، الرياض – المملكة العربية السعودية، ط 1، 1405هـ - 1985، ص 91.

فهو يستثمر في بناء الأفكار وتراكيبها – إن صح هذا القول – لصياغة تاريخ آخر يحاكي تطوره باختلاف في المبنى مع أنَّ الفكرة واحدة.

إنَّ أول من استخدم مصطلح فلسفة التاريخ المؤرخ والأديب الفرنسي فولتير (1694 – 1778)، وقد قصد بهذا المصطلح دراسة التاريخ من وجهة نظر المتفلسف، دراسة نقدية، وعليه فإنَّ المؤرخ بحاجة إلى فلسفة – على حد جوزيف هوريس – لتنسيق التاريخ وتعطيه اللُّحمة التي يحتاجها، وبلا فلسفة نستطيع أن ننكر وجود التاريخ ... فالمؤرخ يتفلسف دون أن يعلم، والأفضل دون شك أن يتفلسف وهو يعلم، إذا أراد لعلمه أن يكون ناجحاً ومفيداً، ونفس الشيء يمكن أن يقال لفيلسوف التاريخ فهو بحاجة لعمل المؤرخ، إذ لا بد من أن يستند على رؤية فلسفية تاريخية شاملة، وفي تفسيره العام لمسار الأحداث التاريخية إلى المادة التاريخية ذاتها..."[1].

وحينما يفهم التاريخ بعيداً عن الزمان، فإنَّ المشكلة ستكون على هذا النحو: كيف نستطيع أن ننجز تاريخا للفلسفة؟ وقد أثار هذا الإشكال جدلا عميقا بين الفلاسفة الذين حاولوا كتابة تاريخ من هذا النوع، وقد برز من بين تلك الآراء، رأي ينادي باستحالة كتابة تاريخ للفلسفة[2]، ورأي آخر يقر بأن هناك تاريخ وليس ثمة فلسفة[3].

[1] النشار مصطفى، مرجع سابق، ص 25.

❖ خلاصة فصـل:

نستنتج من خلال ما تمَّ ذكره، أنَّ فلسفة التاريخ تفلسف الحدث التاريخي فق مقولة العليَّة ومقولة الكلية، وتبتغي النظرة النظر الشمولية.

إنَّ كل من التنمية وفلسفة التاريخ يستمدان مشروعيتها من المرجعية الإيديولوجية، وعليه سيتم ضبط العلاقة على أساس أنَّ المشروع التنموي محكوم عليها في نهاية المطاف، بالحمولة الإيديولوجية التي تؤسس لها فلسفة التاريخ، كتعبير عن صيرورة انطولوجية معينة، والتي هي على الصعيد النظري فلسفات متعددة بتعدد منطلقاتها.

إنَّ فلسفة التاريخ عند الفلاسفة العربين أرست قواعدها عند الفيلسوف الألماني هيغل الذي كان ينظر إليها على أنها ليست مجرد ترخصات فلسفية كما لوَّح بها الفلاسفة التحليليون، فقد كان منهجه مبني على الاستدلالات القِبَلية فحسب، فكانت كثير من تفسيراته ثاقبة حيال مجريات الأحداث والوقائع العينية، كما يضع المقابلة بين العقل الفلسفي والتاريخ المعطى ثمَّ يدعوا –هيغل– إلى نُشدان العقل وسط الواقع، فلا يفرض العقل الواقع باعتباره أنَّ مهمَّة الفلسفة فهم الماهية، وعلى الماهية أن تفهم العقل، فنهج هيغل يترجح بين الفلسفي الخالص والتجريبي الخالص، الذي يرومه لإدراكٍ أفضل لتاريخ حديث معاصر.

الفصل الثاني

الملامح العامة لفلسفة التاريخ عند قسطنطين زريق

❖ تمهيـــــد:

المبحث الأول: مصادر الفكر عند قسطنطين زريق

- أولًا: المصادر الفكرية لدى قسطنطين زريق
- ثانيًا: الوعي القومي
- ثالثًا: تداعيات الفكر عند قسطنطين زريق

✓ المبحث الثاني: التواث وفلسفة التاريخ

- أولًا: ثقافة التواث
- ثانيًا: التواث والاستشواق

✓ المبحث الثالث: رؤية قسطنطين زريق للتواث العربي

- أولًا: الرؤية التاريخية لقسطنطين زريق في التواث العربي
- ثانيًا: سمات الحداثة في فكر قسطنطين زريق

❖ خلاصة الفصل

❖ **تمهيـــــــد:**

لم يكن الدكتور زريق قائداً شعبياً أو زعيماً يتوسل الجموع لبقاء زعامته، أو سياسياً يحترف هذا الضرب من النشاط العام، وإنما كان مفكراً ومؤرخاً وأستاذاً جامعياً وموجهاً ومربياً وبانياً للمؤسسات في آن واحد.

وفي هذا المجال، بالتحديد، ظهر إبداعه المرموق ونقده النافذ ومنهجه العلمي وفكره المستقبلي، فقد كان له الأثر الكبير في حركات سياسية شتى، وفي هيئات ثقافية وعلمية وأكاديمية ذات الأهمية، على أن السياسة شغلت فِكر الدكتور زريق وعقله ووجدانه، لا بمعناها الاحترافي طبعاً وإنما بمعناها الاجتماعي والتاريخي، وبقيت تؤرقه حتى يومنا هذا؛ فالمقدمة الطويلة التي كتبها لِـ "الأعمال الفكرية العامة" جديرة بأن تُطبع وتوزع في كتيب مستقل. إنها أشبه ببيان شامل إلى الأمة العربية في مختلف أقطارها، ينتقد حال المجتمعات العربية الراهنة، وينبه إلى مكامن الأخطاء ومظاهر الأخطار، ويشير –برؤية خلاقة– إلى الطريقة التي يعتقد صحتها لتخطي هذه الأحوال وللخروج من ضعف الحال.

✓ المبحث الأول: مصادر الفكر عند قسطنطين زريق

يحتل قسطنطين زريق مكانة مرموقة بين المفكرين العرب المعاصرين، فهو من رواد الفكر القومي العربي، وأحد أبرز محركي هذا التيار في تاريخنا المعاصر، وهو منظر ومفكر قام بوضع وتطوير العديد من المفاهيم الاجتماعية والسياسية التي لاقت منذ منتصف القرن الماضي انتشارا واسعا، وساهمت بالتالي في رسم الملامح الفكرية للتيارات والشخصيات السياسية التي لعبت أدوار فاعلة ومؤثرة في الوطن العربي.

أولاً: المصادر الفكرية لدى قسطنطين زريق*

إنَّ الصفة الجوهرية لمؤلفات الدكتور زريق وبالأخص التي تعالج الفكر القومي ومسائله، هذه الصفة هي الطابع التوعوي التعليمي النائي عن الخطاب الحماسي الإثارى. والإثارة لدى الدكتور زريق هي إثارة للعقل والعقل البصير قبل أي شيء لكنه يُجلُّ حماسة المثقفين العقائديين الحماسيين ويوازنهم بالرسل والأنبياء.

فكان يرى –قسطنطين زريق– في القومية العربية "مطهرا" للروح. وقد اعتبر البعض أن هذا النوع من الكلام شبيه بالمواعظ التي تلقى في مدارس الأحد. وكالعادة يخطئ المحللون والناقدون في اجتزاء الكلام عن سياقه التاريخي السياسي والاجتماعي والثقافي السائد عندما كتب الدكتور زريق. فكما أشار الدكتور العظمة فإنَّ "خطابية زريق، على تقشف ظاهرها وعدم إلقائها (ولهذا دلالات)، جاءت في سياق سياسي واجتماعي محدد[1].

جال الدكتور قسطنطين زريق، على مدى أكثر من خمسة وستين سنة في قضايا المجتمع والفكر والسياسة والتاريخ والثقافة والتعليم والتربية وبناء المنشآت. غير أن أهم إسهام له كان متمثل في فكره القومي وتنميته مفهوم القومية العربية التي أخرجها من السياق الرومانسي المعتاد إلى رحاب الواقعية الحديثة.

أزاح زريق تلك "القداسة الحجرية" عن ناووس القومية العربية القديم، وأعاد إحياءها ثم أكسبها نضارة جديدة. فهو لم يرَ في القومية العربية، كما رأى ضدية الفكر القومي،

---

* ولد قسطنطين زريق (1909) من أسرة تعليمية أورثوذكسية دمشقية، متسامحة وقريبة من مواطنيه المسلمين، تابع دراسته في الولايات المتحدة الأميركية خلال السنوات 1982 – 1930، قسطنطين زريق واحد بين عدد قليل من الأسماء التي نحت أصحابها مفهوم القومية العربية ونظريتها، لقد كان زريق واحد من الأفذاذ الذين أثروا الزخم الفكري لفلسفة التاريخ، توفي سنة 2000، تاركاً مورثاً فكرياً حضارياً يُقتفى أثره كل حين.

1 عزيز العظمة، **قسطنطين زريق: عربي للقرن العشرين**، د ط، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت – لبنان، 2003، ص231–297.

نهاية المطاف والتاريخ، وإنما مجرد سبيل إلى الترقي والتقدم الحضاري الذي هو غاية الإنسانية وغاية الإنسان العربي بالتحديد[1].

إنَّ موضوع القومية العربية لدى الدكتور زريق ليس أزليًا؛ أي أنها لم تكن موجودة في التاريخ العربي قديمًا، وهي ليست حاضرة الآن أيضًا، وإنما يجب إيجادها. إنها اليقضة ذاتها في أبلغ تجسيد لها عن حال النهضة المرجوة. لذلك يحاذر الدكتور زريق استعمال تعبير "الوطن العربي" ويتحفظ من استعمال مصطلح "الأمة العربية"، ويؤثر استخدام مفهوم "المجتمع العربي" الذي لم يتطور بعد ليصبح وطناً عربياً لأمة عربية. والدكتور زريق، مع تسليمه بأن للعروبة محتوى اقتصادياً واجتماعياً شاملاً، تجنب التعبير عن هذا المحتوى أو إطلاق نعوت عليه كالاشتراكية مثلاً[2].

أكد قُسطنطين زريق على التفريق بين تَصَوُرَيْ العروبة والإسلام، واضعاً بها العِلمانية إطاراً مُلزِماً في سعيٍ لإطلاق هذه النَّهضة العربية ورفع قدر القومية. ويرى الدكتور زريق، في سياق نقده واقع المجتمع العربي، أن هناك نقصاً كبيراً للشعوب العربية عن المسرح العربي، وأن هناك وجوداً سائداً للحُكّام الذين حوّلوا الشعوب إلى جَماهير مُنقادة، أو إلى رعيّة مُطيعةٍ ومُستَسلمة. وهو يشير إلى غياب القضايا الهامّة عن اهتمامات الناس، كالاستقلال والوحدة وفلسطين، التي كانت تجذب قلوب النُّخبة ووجدان الشعوب فتبذل لاعتناقها وتحقيقها بصبر وتضحية وجرأة. ومن دلالات الضعف في الواقع الراهن، بحسب الدكتور زريق، غياب المنطقية والقيم والبراعة على الفعل والتأثير.

إنَّ مكانته الإبداعية تعود إلى إنتاجه الفكري وتجدده، وإلى الانتشار الواسع الذي تمتع به الإنتاج خلال سنوات طويلة، حيث تلقفته أجيال متتابعة من الطلبة الجامعيين من مختلف الأقطار العربية، لعبت أدواراً هامة في بلدانها، فضلا عن أسلوبه هذا المميز الذي مكنه من تأسيس منهج فكري واضح، سمح لشرائح واسعة من المثقفين العرب بالتفاعل معه على نطاق

1 قسطنطين زريق، **الأعمال الفكرية العامة**، مج 4، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، 1994، ص60.

2قسطنطين زريق، **الأعمال الفكرية العامة**، المصدر نفسه، ص60.

واسع، وإن كانت الغايات الكبرى لم تتحقق بعد، لكنه رعاها حتى الذبول والتفتح، وسقاها من فكره، وتجربته وجهده وعلمه، ما جعله من بين أكثر المفكرين العرب حضورا وفعالية، فقد قرآناه يعيش زمانه، وهو النادب نفسه لمهمات تترجح ما بين الوطني والقومي والإنساني، بين الحضاري والثقافي والتاريخي، يتناول موضوعاته بشغف، مُحللاً، برصانة، وبحضور فاعل، لأكثر من ستين سنة[1].

لم يكن حضور مادياً ومباشرًا بالضرورة، بل كان بأفكاره ولسنوات وعقود يزرع في أرضنا العربية ببذور المعرفة والحرية والعقلانية، الحق والعدل، النهضة والوحدة العربية، وهي بذور أينعت في أفراد ومؤسسات وأوضاع، سقاها من فكره وتجربته وجهده وعلمه، فقد قرآناه ملتزما قضايا أمته، يتناول موضوعاته بشغف، راصدًا بعقلانية والتزام، لم تحده حدود، ولم تأسره وقائع الأزمنة، فقد كان يدخل مع كل منها بحالات من التفكر والتبصر تكشف عن إنسان أوتي من سلطان المعرفة ما جعله يستشرف آفاق المستقبل، مع ذلك ما استبد به يوما ادعاء أو غرور، بل ما زادته المعرفة إلا تواضعا[2].

1 عبد الغني عماد، **قسطنطين زريق الداعية والمفكر القومي العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، 2012، ص 7، بتصرف.

2 المرجع نفسه، ص8.

ثانياً: الوعي القومي

يستهل الدكتور زريق دائما في التشخيص لحالة الأمة، ومن ثمة يعطي الحل المنوط بها. ففي مطلع مؤلفه عن الوعي القومي يقول: "لم يبق خافيا على أي من ينظر في حالة الأمة العربية أنها تجتاز اليوم دورا من أشد أدوار حياتها دقة وأعظمها خطرا، وأنها تتخبط في فوضى فكرية بعيدة المدى بليغة الأثر"[1].

هذه الإشارة أولى لحداثة فكر الدكتور زريق! فما كان صحيحًا عام 1939، ما زال ساريا المفعول لعام 2008! والسبب في تلك الفوضى الفكرية هو "فقداننا الشعور القومي الصحيح الذي يوحّد جهودنا، وينظّم قِوانا الروحية، ويُضفي على نفوسنا صفاءً وركونًا واطمئنانا"[2].

يتساءل الفيلسوف قسطنطين في كثير من الأحيان، كيف يمكن أن يكون ذاك الشعور مفقودًا عندما تكون شؤون العامة للأمة على لسان كل من يتحدث بها؛ الكبير والصغير والغني والفقير؟، ثمَّ يقول "أفنُنْكر بعد هذا كله الشعور القومي، وسريانه في قلوب الأمة ونفوسها؟

ويجيب من خلالها بقوله: "أن كل ذلك لا يبلغ قرارة النفس، ولا يكيّف صورة الحياة. فمعظم المهتمين في الشؤون العامة الذين هم أصحاب غايات وأطماع دنيوية، والقلة الباقية موزعة بين فريق يتخذ القضايا القومية ملهاة يملأ بها فراغه، يسرّي بها عن نفسه عندما يفرغ من عمله الخاص، فيجلس إلى صحبه ويبادلهم تلك الأحاديث الجدية أو غير الجدية، ويُوهم نفسه وصحبه أنه يؤدي بذلك واجبه الوطني، ويلتحق بصفوف العاملين في حقل القومية الصحيحة"[3].

أمَّا عن الفريق الآخر فتلتهب في نفسه عاطفة وطنية صادقة لكنها لا تخرج من حيز الشعور إلى حيز العقل، فتراه مدفوعًا بشتى الانفعالات النفسية والتأثرات العاطفية دون أمن أو

---

1 زياد الحافظ، **قسطنطين زريق والفكر القومي، (مداخلة بمناسبة مئوية ولادة الدكتور قسطنطين زريق)**، في ندوة نظّمها النادي الثقافي العربي بمناسبة المعرض السنوي للكتاب العربي، بيروت– لبنان، 10 كانون الأول 2008.

2 قسطنطين زريق، **الأعمال الفكرية العامة**، مصدر سابق، ص63.

3 المصدر نفسه، ص64.

استقرار. فتلك المجموعات التي تتحرك إمَّا بدوافع شخصية، أو لملء فراغ وقتها، أو بدوافع عاطفية آنية، "فلا يمكن أن تكون أساسا متينا يبنى عليه كيان الأمة ويشاد صرحها الجديد"[1].

فالشعور القومي الصحيح هو الذي يبتعد من أدران المادة ويرتفع إلى حيّز العقل ليصبح شعوراً يدعمه الفكر، "أو بالأحرى فكرا يذكّيه الشعور، وسرت في جوانب النفس كلها، فملأتها – وعيا – قوميا"[2].

فيجيب أن "يقوم أولا على معرفة ماضي الأمة معرفة صحيحة، وفهم تلك العوامل الطبيعية والتاريخية التي كوّنتها حتى جعلتها في حالتها الحاضرة، والكشف عن مصادر قواها الروحية الخاصة التي تمتاز بها عن غير الأمم"[3].

أما المُقوِّم الثاني لذلك الوعي فهو اللغة. وتماشيا مع ضرورة معرفة ماضي الأمة فلا بد أيضا من معرفة من أين نشأت اللغة، وكيف انتشرت، والتيقن بميزاتها على غيرها من اللغات، والقوى الخاصة التي جعلتها تسود سيادة تامة على الأقطار العربية الشاسعة.

فاللغة ليست من المسلمات التي لا تستوجب الدراسة والدليل على ذلك في رأيي الانحطاط الذي يسود الخطاب المكتوب والمرئي والمسموع. كما أعتبر أن انحطاط اللغة من انحطاط الثقافة وانحطاط الثقافة من انحطاط الحضارة وانحطاط الحضارة من انحطاط الأمة وانحطاط الأمة من انحطاط الإنسان.

لم يأت كلام الدكتور زريق من الفراغ. فهو ابن النهضة العربية التي بدأت في القرن التاسع عشر، والتي بدأت بتجدد اللغة العربية مع الفكر عامة والفكر الديني خاصة. فأعمال اليازجي والبستاني تتجسد في كلام الدكتور زريق. ويوضّح المفكر "أن اللغة ليست سوى مظهر

---

1 زياد الحافظ، **قسطنطين زريق والفكر القومي**، المصدر سابق.

2 زياد حافظ، **البنية الاقتصادية في الأقطار العربية وأخلاقيات المجتمع**، (ندوة نقاشية نظمتها المنظمة العربية لمكافحة الفساد)، بيروت – لبنان، في 24 تشرين الأول 2008. ونشرت الورقة والمداخلات النقاشية مطلع 2009.

3 المصدر نفسه.

من مظاهر الثقافة. والوعي القومي يتطلب أن يكون لنا فهم صحيح لجوهر الثقافة العربية"[1]. فيضيف على إثرها أنَّه لا بد من أن يكون وراء هذه الميزات قِوَى روحية خاصة ... لندرك حقيقة هذه الثقافة التي ورثناها عن السلف، والتي تُكوِّن اليوم القسم الأكبر والأبرز من شخصيتنا". وينتهي بالقول أنَّ الوعي القومي الملتفت إلى الماضي "أن نلمس روح تاريخنا ونتصل بالعوامل التي كوّنت هذا التاريخ"[2].

من الواضح أن الإدراك القومي لدى الدكتور زريق مختلف كل الاختلاف عمَّا يكثر من التغني بمحاسن الأسلاف والإشادة بفضل الآباء، والافتخار العاطفي بالزمن السالف والتاريخ المشرق. فالأستاذ ينظر دوماً لصناعة المستقبل عبر الفكر والعلم ولكن بعد المعرفة الفعلية للماضي.

إنَّ النهضة الصناعية التي يتناولها هي تلك التي تستخدم الموارد الطبيعية ومقدرات الإنسان وقابلية الآلة الحديثة من أجل رفع الإنتاج.

عند عودتنا لمفهوم الوعي القومي يعيدنا الدكتور زريق على مؤثر آخر، وهو عامل جديد في تكوين ذلك الإدراك. فذلك العامل الذي يتفاعل في الشخصية العربية هو "الغرب". فالغرب حقيقة لا يمكن تجاهلها على حد قول الدكتور زريق، خصوصًا من حيث المحيط بنا من جميع الجهات. فيعتقد أن أغلب العرب لم يستوعبوا فلسفات الغرب بعد استيعابًا صحيحًا، ولم يبلغ حدَّ إدراكه إلى جوهره، بل ما زال منشغلًا بمظاهره الخارجية وأضوائه الخلابة؛ أي أنَّه ضحل في نظرته لتلك الالتفاتة.

إنَّ ثقافة الاستهلاك في الأدبيات الحديثة ربما تكون هي المستورد الرئيسي من الغرب! غير أنَّ ما يعنيه زريق هو النظام الاقتصادي الذي يكمن وراء جميع تلك المظاهر، التي تشدّ العرب بأبعادها المتزايدة في إرث حضاري يتميز بسماتَيْ الأصالة والمعاصرة. ذلك النظام

---

1 قسطنطين زريق، **تحية إلى المؤتمر القومي العربي الثاني، (مقال منشور في جريدة الحياة)**، في 15 شباط 1991، مج: 4، 1996، ص51.

2 المصدر نفسه، ص52

الاقتصادي المتشابك الناتج عن الثورة الصناعية قد أُضيف اليوم إلى جانب الثورة العلمية والمعلوماتية والمواصلات والاعتبار؛ أي ما عُرف في إطار ثورة العلم والمعرفة.

ثالثاً: تداعيات الفكر عند قسطنطين زريق

إنَّ تبعات فِكر قسطنطين زريق تتجلى في المشروع العربي النهضوي التكاملي، مركز دراسات الوحدة العربية، المؤتمر القومي العربي الآراء التي لا تُحوّل إلى حديث قائم ومنتشر والتي لا يترتب عليها فعل مرشحة للاندثار مهما كانت صائبة. فكر الدكتور زريق حاضر بيننا في الخطاب القومي المعاصر، الذي يجسّد ما نطلق عليه بالمشروع العربي النهضوي الوحدوي بأطرافه الست.

تمثل هذه المقاييس هي الجواب الإستراتيجي على ما تعاني منه الأمة: فالوحدة العربية هي الجواب على التجزئة والتشتت، والديمقراطية هي الرد على الاستبداد، والتنمية الذاتية هي ضد التبعية والانفتاح الخارجي، والعدالة الاجتماعية هي ضد الظلم وتركيز الثروات، والاستقلال الوطني والقومي ضد أطماع الاستعمار واستعماره للأقطار، وأخيرًا التجدد الحضاري الذي لا يغير التراث هو الجواب على الجهل. هذه الغايات التي تشكل المشروع العربي النهضوي الوحدوي تناولها بصورة مباشرة أو بأخرى كاتبنا الراحل الكبير الدكتور قسطنطين زريق، وذلك على مدى الأعوام وفي كل مؤلفاته.

إنَّ ذلك المشروع مبني على العقل والعلم والمنطق التحليلي وليس على العاطفة والارتجال. كما أن ذلك المشروع ولد من رحم الدراسات الجزئية والتركيبية التي كان أعدّها مركز دراسات الوحدة العربية في أواخر الثمانينات من القرن الماضي في مشروعه العلمي الكبير "مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي"[1].

خلال التسعينات من القرن الماضي أدرج المركز ضمن مخططه العلمي كافة المواضيع والقضايا التي تشكل مادة ذلك المشروع النهضوي كمسائل فكرية ذات أولوية في برامج النشر والندوات من أجل بلورة ملامح المشروع.

---

1 قسطنطين زريق، **الوعي القومي: نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية ومؤسسة عبد الحميد شومان، الأعمال الفكرية العامة للدكتور قسطنطين زريق، مج: 1، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 3، بيروت – لبنان، 2001، ص71.

لم ننته من صياغة ذلك المشروع. فهو حيٌّ يتفاعل مع المتغيّرات ويدحض كل الادعاءات لجمود الفكر القومي. فهو نابع من وجدان وعقل هذه الأمة وهو صاحب رسالة إلى الإنسانية أجمع. وهو شامل يضمّ كافة التيارات الفكرية السائدة في الوطن العربي. فالعروبة تكون في مساهمة كل العرب مهما كانت انتمائهم. والقومية العربية ليست فكرة عرقية ضيقة الافاق. فكل عربي يساهم في نهضة الأمة هو في يقين العروبة والفكر القومي العربي المعاصر[1].

لقد فهم الدكتور زريق العروبة. هكذا يفهمه المشروع العربي النهضوي الوحدوي. العمل الفكري المؤسسي حالة جديدة في فكرنا العربي. فكما كان يردد الدكتور زريق إن المعرفة نتيجة عمل تراكمي. والعمل المؤسسي الذي يضّم أكبر عدد ممكن من الطاقات الفكرية يجسّد ذلك المنهج. وللدكتور زريق كلام تأييد لمركز دراسات الوحدة العربية الذي ساهم بأشكال عدة في نموه وترويجه. فالمركز هو شمعة من الشموع المضاءة هنا وهناك في خضم الظلام العارم "وأن نتعهدها بالعناية والعون، لتبقى محافظة على ضيائها، بل ليزداد هذا الضياء قوة وانتشارا، وأن نضيف إليها شموعا جديدة بمساعينا الجادة والملتزمة على مختلف الجبهات، كيما يقوى النور على الظلام ويتغلب تدريجا عليه، وكي تتعلق النفوس بنياط الأمل وتهتدي العقول بالجهود الإيجابية المبذولة في جوانب مجتمعنا والتي يتوقف حسن مصيرنا على سلامتها وانتشارها وتعاضدها وتكاثف آثارها في حياتنا[2]".

هكذا يتحقق جمع الشمل الفكري والسياسي بين أبناء هذه الأمة، فالرحلة التي انطلقت في بداية التسعينات، هي ذروة التدهور العربي على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وحتى الأمن القومي للأقطار العربية، هذه الرحلة التي يمثلها المؤتمر القومي العربي بدأت تُثمر وبدأت تشكل نواة مرجعية سياسية لهذه الأمة.

---

1 قسطنطين زريق، **الوعي القومي– نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي**، المصدر السابق، ص 72.

2 المصدر نفسه، ص 72.

✓ المبحث الثاني: التراث وفلسفة التاريخ

أحرز التقدم المتواصل للعلوم والتقنيات، وثورة التكنولوجيا، إلى الحياة الاجتماعية عامل التحول المستمر والصيرورة الدائمة التي أفضت إلى انهيار الأعراف والقيم الثقافية التقليدية. وفي ظل هذه الصيرورة الاجتماعية بمختلف اتجاهاتها تحدد السياق العام لمفهوم الحداثة بوصفه ممارسة اجتماعية ونمطا من الحياة يقوم على أساس التغيير والابتكار. وغني عن القول إن أكثر اللحظات في التاريخ أهمية وإبداعا اللحظات التغييرية الحداثية، وهي اللحظات التي يتم فيها الكشف عن منطق مغلوط مضلل واستحداث منطق جديد. حيث نجد في الفلسفة نقدية كانط التحليلية، ومثالية هيغل الكلية، ومادية ماركس الجدلية، وظواهرية التأويلية، وبنيوية فوكو التفكيكية. وهي من أهم اللحظات التاريخية في الحداثة الفلسفية.

لقد نشأ نقاش مطول حول قضايا التنوير والإرث، وتجلَّى خلالهما عصرين منفصلين من الزمن؛ عهد التمسك بالإرث القديم لعظمة كونه إرث، وعصرٌ يعطي اهتماماً بالغاً وللإفادة من الحضارة الأوروبية، فنضجت على إثرها الأجواء لحل معضلة العلاقة بين حاضر الفكر العربي، وماضيه التراثي على أساس جديد يتوافق مع التوجهات الثورية لمضمون الحركة التَّحرُّرِيَة العربية في لحظتها الراهنة، كما أنَّ الإرث ليس موحداً بل متعدداً لأنه يُنظر إليه على أنَّه جزءٌ من الحاضر الممتد في ذلك إلى المنظور الإيديولوجي الطبقي للإرث كواقع تاريخي مشترك، فعند التحقيق لا بد لها أن تبعثها تيارات هذا التناقض من جملة التيارات الفكرية التي تعبر عن موقِفها من الإرث، المتجسدة في تيارات لعل أهمها كان:

أولاً: ثقافة التراث

إنَّ تراث الأمَّة هو ما قَدَّمه السلف للخلف في مجال الفكر والثقافة بصفة عامَّة، حتَّى توارثته الأجيال فيما بعد، في إطار ما سُمِّي بالتاريخ، الذي هو حاضنة الماضي وكافلة الحاضر برعاية سامية ترقى بمستواه على مختلف الأصعدة، فالتراث هو سيادة الأمَّة وريادتها في المحافل التي تحفظ توجهاتها الفكرية، وتُكوِّن أُطُرُها نحو شخصية فاعلة وهادفة.

لقد كان هذا التراث منطلق اهتمام التيار المحافظ في الفكر العربي الحديث منه والمعاصر، فيتمثل هذا التيار في الوقوف على التراث، بحيث نجد فيه حلاً لمختلف قضايا العصر، ممَّا جعل أنصار هذا الاتجاه يستميلون لنقد الحضارات الغربية[1].

كما انشغلوا بإحياء التراث من خلال ما وصل وانقطع، أو من خلال العلاقة التواصلية التي تجمع بين الماضي والحاضر، خاصة من حيث استلهامه في مستقبل الأيام لبعض الأشياء بغية بناء تاريخ أحدث، الذي يمثل هويةً إنسانية عالمية، ممَّا فتح له أفق التوسع نحو واقع أفضل متحرراً من ثنائية الإمتاع والمؤانسة إلى مرحلة التقعيد التأريخي كتأصيل هادف ومستجد[2].

يرى أنصار هذا التراث أنَّ سبب التخلف هو عدم التزامنا بالتراث كموروث ثقافي حضاري، عن طريق التقدم العلمي المواكب للصورة النمطية المستحدثة، والمستلهمة منها بأثر رجعي وقت الحاجة[3].

فعلى أساسه فإنَّ الحل يكمن في العودة للتراث، الذي هو أمل الرُقَيِّ نحو واقع أفضل، معتزاً بماضيه المتحضر بصيرورة مثالية في جذور التاريخ.

---

1 عاطف العراقي، **الفلسفة العربية والطريق إلى المستقبل**، دار الرشد العربية للطباعة والنَّشر، ط 1، 1998، ص10.

2 المرجع نفسه، ص10.

3 فؤاد زكريا، **الصحوة الإسلامية في ميزان العقل**، دار الوفاء للدنيا للطباعة والنشر، الإسكندرية – مصر، ط1، 2006، ص10.

يرى ناصيف نصار في مجال التمييز بين الحداثة والتقليد "أن الحداثة هي المفهوم الدال على التجديد والنشاط الإبداعي، فحيث نجد إبداعا نجد عملا حداثيا، وبهذا المعنى فإن الحداثة ظاهرة تاريخية إنسانية عامة نجدها في مختلف الثقافات. وتتحدد الحداثة في هذا المعنى بعلاقتها التناقضية مع ما يسمى بالتقليد أو التراث أو الماضي، فالحداثة هي حالة خروج من التقاليد وحالة تجديد"[1].

1 غانم هنا، وآخرون، (**ندوة حول عناصر الحداثة في الفكر العربي المعاصر**)، ع 61، السنة 16، شتاء 1998، ص218-247، ص221.

ثانياً: التراث والاستشراق

لقد استوحت الأمم المتقدمة أيضاً هذه القيم ووظفتها في مسيرتها الحاضرة وقدمتها للعالم أجمع كمنهج تأريخي لهم، فتغدو هاته الجماعات على حدٍّ قول قسطنطين زريق: "أمينةٌ لماضيها ولتراثها أمانة صحيحة، بالنهوض على تكوين نفسية مستقبلية معاصرة ومُسهمةٍ للبشرية كل اسهام خيري"[1].

كانت ثورته هي الاحتفاء بالماضي، وتمجيد تراث المحافظين، كمادة جوهرية في الوقت ذاته الخادمة للحاضر والماضي ولمستقبل على حدٍّ سواء، فالماضي المتأصل والضارب بجذوره في التاريخ، فمن الصعب أن نحصيه بكل حقائقه وتفاصيله الدقيقة ولكن كلما كانت معرفتنا أوسع وأشمل وأشد ترابطاً وتماسكاً كانت ثقافتنا التاريخية أغنى وأرحب، وكان فعلها ابرز وأجدى فائدة، ومع ذلك لا نركز في الحاضر، والمستقبل في الوقت نفسه التراث العربي الذي هو جزء حضارتنا الراهنة، بل هو أساس الذي تقوم عليه، باطل ما كان ينادي به البعض كأن يرمي بهذا التراث جانباً ونستقي من الثقافة الغربية المعاصرة، فلا ينبغي علينا أن نصب كل تركيزنا على مقومات الأصالة والمعاصرة.

ما أنه لا ينبغي إهمال التراث ونتغافل عن الماضي الحافظ لتراثنا، ففي نظر قسطنطين زريق أنه صيانة لماضيها وعيا لحاضرنا وحصراً على مستقبلنا"[2].

فينبغي على الأمَّة العربية معرفة حقه معرفة صحيحة حتى نتمكن بذلك من صيانة تراثنا واعتبار الماضي الموغل في ثنايا الحاضر، الذي ينفي إدراكه ووعيه وعياً تاماً من جل بلوغ مرحلة التنظير الهادف للمستقبل.

فمع كل هذا يصبح تراثنا ضرورة لا قومية فقط، بل إنسانية شاملة، وسبب من أسباب الثقة بالنفس، بإرادة الوجود والنهوض بالقدرة على التقديم والعطاء.

---

1 قسطنطين زريق، **ما العمل**، مصدر سابق، ص78.

2 قسطنطين زريق، **الأعمال الفكرية الكاملة**، مصدر سابق، ص23.

يقول الفيلسوف زريق: "ما أعظم حاجتنا إلى استخلاص جوهر التراث العربي الباقي على ضوء الحاضر والمستقبل، بأقل ما تقدمه حركتا الأصولية والتراثية من إسهام في هذ العملية وقومياً وإنسانياً"[1].

إنَّ سبيل العلم هو طريق الغد، وهذا يصح على دراسة الماضي مثلما يصح على دراسة أخرى؛ كالدراسة العلمية التي تتطلب تقصي جزءٍ وافر من التفرع والانصراف والتباعد عن الحاضر والتجنب منه، فالاقتراب من التراث من أجل بناء الحاضر والمستقبل، ممّا يجعل هذا الإقبال يكون حاضراً في الذاكرة، وخاضعاً لها.

فالدراسة العلمية الصحيحة، التي تُقبل على الماضي مثل ما تُقبل على أي موضوعٍ من الموضوعات الأخرى، بعقل منتبه ومتيقظ، وفكرٍ واعٍ غير خاضعٍ لمادة الحاضر التي يستلهم منها، ولا يكون بها أسيراً، بل هي عامل محفز له من خواص فعله ومن جملة القواعد التي يتقيد بها والمثل والقيم التي يستلهم منها ما يؤمله في التحرر من مادته والسيطرة عليها[2].

إنَّ طريق المعرفة هو درب المستقبل، وهذا يصدق على دراسة الماضي مثلما يصدق على دراسة أخرى؛ كالبحث العلمي الذي يتطلب استقصاء جزءٍ وفير من التفصيل والابتعاد والانفصال عن الحاضر وتجنبه، فالاقتراب من التراث بهدف بناء الحاضر والمستقبل، مما يجعل هذا الإقبال راسخاً في الذاكرة، وخاضعاً لها.

---

1 قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، المصدر سابق، ص78.

2 المصدر نفسه، ص217.

✓ المبحث الثالث: رؤية قسطنطين زريق للتراث العربي

تكمن أهمية فلسفة التاريخ في التفكير الفلسفي الواعي عمومًا، من حيث أنها تؤكد على أهمية التاريخ في حياة الأمم والشعوب، وبالتالي يتم التأكيد فيها على قيمة الوعي التاريخي، الذي يعبر عن إدراك الذات لكينونتها وصيرورتها في مُسايرة خُطى التاريخ وصناعته له، فالحقيقة التي لا جدال فيها، أنَّ الفيلسوف قسطنطين زريق اعتُبر من أبرز رواد فلسفة التاريخ، التي قُصد بها الربط بين الأحداث التاريخية وتفسيراتها، برؤية استشرافية قائمة على خلفية نظرية لإرث حضاري أصيل.

أولاً: الرؤية التاريخية لقسطنطين زريق في التراث العربي

دعا قسطنطين زريق للاعتماد على الإرث وتعظيمه لبناء الحاضر إعدادًا للمستقبل، ففي مقابل الأشخاص الذين يحاولون التطلع للعالم الآخر بسرعة، مع تجاهلٍ كامل للحاضر الراهن، نجد في الوقت ذاته أفرادًا وجماعات آخرين يدعوننا إلى الرجوع الكلي إلى الماضي، وإلى استلهامه بديلًا عن الحاضر ودليلًا على المستقبل بفهم دعاة الأصول وحماة هذا الإرث. ما وافق رأي قسطنطين زريق إذ يقول: "فعنايتنا بالتراث ينبغي لها أن تنصرف إلى استخراج ما تحتويه من قيم عقلية وخُلقِية لنتقوى بها على إصلاح حاضرنا والإعداد لمستقبلنا إصلاحاً واعتماداً، متبصرين به ووافيين"[1].

فالمجتمع في نظر قسطنطين زريق: "يحسن بالتراث العربي ويرغب في تمتين أصوله المغروسة فيه، ويفخر بما أنتجه هذا التراث في زمن رقيه ازدهاره، وما قدمه للعالم من ثقافة وحضارة"[2].

يحي التراث بأصوله وانتاجاته وما قدَّمه للمجتمع لا يمكن الاستغناء عنه، أو التخلي عليه، فمن بين الأفراد والجماعات على رأي قسطنطين زريق "من يأسرهم ما في مجتمعهم، أو أمَّتهم فلا يرتاحون إلاَّ إليه ولا ينفكون يستعيدونه ويتغنون به ويلجؤون إليه، عن وعي أو غيره، هروباً ممَّا يحيط بهم من هموم وتحديات، بالإضافة إلى دور الأمم في تنجذب في بعض أدوار حياتنا إلى ماضيها فتبقى ملتفتةً إلى الوراء مقتنعةً بهذه الالتفاتة، عاجزةً بأن تولي وجهها شطر المادين المفتحة أمامنا، فهو السبيل الذي يُرسم في أذواق حياتنا المقبلة[3].

نحن بحاجة إلى نشاهد المجتمعات المتحضرة وليست للمجتمعات المتأخرة، بسبب تصحيح دروبنا التي تظلمها وتؤخرها وللعالم أجمع أقسى المشاكل والأزمات، فالمجتمعات المتباينة التي تحوي ماضيها على قيم عقلانية وأخلاقية صالحة لكل وقت وحين، تستطيع أن

---

1 قسطنطين زريق، **ما العمل**، مركز الدراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت – لبنان، 1998، ص78.

2 قسطنطين زريق، **الأعمال الفكرية الكاملة**، مصدر سابق، ص62.

3 قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، دار العلم للملايين، د ط، 1959، ص209.

تواصل طريقها المليئة بالنجاحات لتساير شتى تطلعات الأمم، فكل من التيارات المتحفظة والغربية والتوافقية تتفق في مسعاها نحو تقديم النهضة للأمة بشتى جهودها واجتهاداتها. واحتفالنا بالماضي وافتخارنا به واجب مُلح لاستحضار إرثٍ أصيل، وتكوين جيلٍ مُدرك وواعد بقيمٍ متينة ذات أبعاد فريدة وبنظرة مستقبلية مُتشعبة الرؤى بيقين الماضي.

وذلك "أنَّنا لا نطلب الماضي لذاته وإنمَّا من أجل تجديد الرؤية إلى الأصول والمنطلقات التي صنعت الماضي المجيد لتوظيفها بما يخدم حاضرها ومستقبلها"[1]. فبمعرفتنا بالماضي تعد عنصر هام من الثقافة لحسن تفهم ماضينا وسلامة بناء مستقبلنا.

1 محمد محفوظ، **الإسلام، الغرب وحوار المستقبل**، المركز الثقافي العربي، د ط، الدار البيضاء، 1998، ص33.

ثانياً: سمات الحداثة في فكر قسطنطين زريق

لقد شكَّل السؤال المتكرر عن الوعي والمستقبل في فكرنا العربي محور العمل الذي قام به الفيلسوف قسطنطين، والذي يعتقد على أنَّه لو كان الغد – الذي هو المستقبل– مبهماً فإنَّنا سؤالنا عنه يكون من الواجبات لنهضتنا المرتقبة، فقد إنَّ موقفه من التراث هو الرَّفض الجازم من خلال العودة إليه بشكل جِدِّي وكلي؛ بالسَّير نحوه قدَّاماً بالاهتمام به، فيرى زريق: "أنَّ الماضي لا يمكن استرجاعه وتمثله كما لو كان، لأنَّ الحياة تسير قداماً، والحجات تتطور حسب مقتضيات مطالب الزمن"[1].

1 قسطنطين زريق، **ما العمل**، مصدر سابق، ص77.

1- المجتمع والحداثة في فكر قسطنطين زريق:

قد نجد صلة المجتمع والحداثة كما يُرى من البشر نجد أنهم يعيشون في ماضيهم الخاص، فلا يزالون يذكرون ذلك الماضي ويشتاقون إليه ولا يجدون بغيتهم إلاَّ فيه، فتراهم يرددون في مجالسهم أخبار الوقائع السابقة التي حدثت لهم، بأعمالهم الواضحة وغير الواضحة التي قاموا بها، فحالتهم أقرب إلى وضع السجين الذي لا يمكن التحرر من تلك القيود أو التوجه عنها، إلى الاهتمام الفعلي بالمنتج بمشكلات الحضارة، فلا عجب إذا ملَّ الناس من كل حين، وضاقوا بهم ذرعاً، خصوصاً في هذه السنوات التي كثر فيها الاهتمام بهذا الجانب، وبالاهتمام بآمال المستقبل"[1].

فلا ينبغي علينا أن نغمس في التراث، أو الماضي ونعتبره بالمثل الثمين الذي ينبغي على كل واحدٍ منَّا أن يحييه، فالإنسان قد يذكر الماضي ولكنه يعيشُ أيضاً في الحاضر ويخطط للمستقبل فهو الذي يحن له لما مضى من تراثه، إلاَّ أنه يعتبره في الوقت ذاته مشغولٌ بتطلعه إلى ما يخبأُ له الغد، فنظرتنا للمستقبل من نافذة الماضي في فكرنا العربي لا تتم إلاَّ في ضوء حاضر، إدراكنا للأسباب الفاعلة الأصيلة، في تكوين المشكلات الإنسانية الحاضرة، وكشف طبيعة هذه الأسباب، فيعتقد قسطنطين زريق "أنَّ الإنسان مهما كان؛ فرداً أو جماعةً هو إلى حدٍّ بعيد عبارة عن نتاج من الماضي، فكل مشكلةٍ من المشكلات التي تعرض لها الإنسانية في هذه الفترة الحاسمة من حياتها لها أسبابها المزعومة من التراث الذ تسلمه من الأجيال السابقة التي يفعل فيها، كما تفعل هي ذلك فيه"[2].

فمن بين العلل التي أضعفتها وأوقفت سيرنا على النهوض بالرقي الحضاري، هي تركنا للماضي والتطلع للحاضر برؤية مستجدة ومأمولة.

---

1 قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، مصدر سابق، ص209.

2 المصدر نفسه، ص150.

يقول زريق في هذا الصدد: "فلنحجم عن الالتفات للوراء، ولنمعن النَّظر في الحاضر قلباً وتبديلاً، متطلعين بأنظارها كلها إلى المستقبل وإلى مثل الحياة التي نعتزم تحقيقها"[1]. ففي وقتنا الحاضر كما يعتقد قسطنطين أننا نمهد لبناء مجتمع جديد مناهض لظروفه القاهرة، بوطن قوي وزاهر، فالحلقة المفقود في الحاضر لا بد أنَّ تكتمل، إلاَّ بنقص مفرطٌ فيه قد طرأ في القدم، فيجدر بنا الحفاظ على بعض الجوانب القوية في التراث الخالدة، التي لا ينبغي التخلي والاستغناء عنها، وهو ما يدعه زريق في قوله: "ليستقرَّ في ذاتنا استقراراً جلياً، فلا يُجيدِنا مطلقاً في أنْ نجابه صروف الحاضر بتكنولوجياته الهائلة، وبفنونه الأشد إمعاناً في الرقى نحو واقع أفضل وفنونٍ مختلفة"[2].

فينبغي علينا أن نسارع في خطانا في السباق نحو التسلح، لتجاوز عتبة الماضي بسلبياته، واختلالاته التي طوَّقت نفوذه وتقدمه.

1 قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، مصدر نفسه، ص19.

2 المصدر نفسه، ص209.

2- التراث والحداثة في فكر قسطنطين زريق:

يدعو الفيلسوف قسطنطين في مؤلَّفاته عن الموروث والتاريخ بالاستشهاد من حضارات الأمم – الغربية– الماضية بعض النواحي الهامة لتحقيق تَطوُّرٍ أفضل بالاستخدام الأمثل والأكثر نجاعة لأدوات التكنولوجيا في كلِّ ناحية من نواحي الحياة، ممَّا يحث المجتمعات البشرية الاهتمام أكثر فأكثر، وإلى اقتنائها بوسائل أكبر وأفخم لالتحاق بالمسيرة المتقدمة في مختلف مجالات التكنولوجيا، فجمَّة هي تلك المخترعات والابداعات التي ساهمت في تحقيق تقدم أفضل أحسن بكثير ممَّا كانت عليه في السابق.

لقد مضت قرون عديدة على الفكر العربي دون عمل في مختلف جوانبه الخلاقة المبتكرة، في حين لمع نجم العبقرية الفكرية الغربية بعد تدقيق عميق في ماضيها المليء بالأخطاء والسخافات، فما برح يخلص منها بعناية فائقة حتى بدت معالم التغيير تتجلى على مختلف الأصعدة، فبها اتسع أفق القوة الصاعدة تجني ثمارها من حين لآخر، بماضٍ خالدٍ في سجلات التاريخ كتراث ثقافي أصيل، وبحاضر يسمو بمستوى تطلعات الشعوب بآمال المستقبل وآلام الماضي[1].

غَدَت البلدان العربية أكثر عرضة لحركة التأثيرات الغربية التي فاقتها في شؤون شتَّى، فلا مناص من التقاعس سوى ركوب مطايا التغيير. لمواكبة هاته الحضارة الغربية الصناعية – إن صح هذا القول– حماية للقوة الرَّشيدة الفاعلة في المجتمع، والحامية لسيادتها بالريادة المحلية فالخارجية، ولمجاراة القِوى العظمى التي تفرض سيطرتها على النُّظم العالمية، التي تُؤود في ذات الآخر مطامح مالها وهن.

يكون بلوغ فترة التطور والتقدم أيضاً من خلال الاقتباس من بحر الثقافة الغربية كما يرى قسطنطين زريق: "فالثقافة العربية التي سادت العالم عصوراً من الزمن لم يضرها كأن تتصل

1قسطنطين زريق، **نحن والمستقبل**، دار العلم للملايين، ط 1، بيروت – لبنان، 1980، ص100.

بالثقافة الغربية، ما يؤخذ عنها أنها قد اتصلت بالماضي ثقافات أخرى متنوعة في حضاراتها المستمدة من عناصر وافرة لم تضعف بها بل ازدادت قوة على قوَّة"[1].

يتبين هذا لنا أنَّه لا يكفينا أن نصب اهتماماتنا بالمقومات التي قدَّمها لنا التراث فقط، بل نتجاوزها إلى مختلف مقومات الحضارة الراهنة المستجدة، فتكسب من خلالها ما تستمده من عناصر الرافدة، ومتنوعة بذلك يكون تسائلنا عن المستقبل لا يمكن أن يكون تصوره فيما نشكله من ماضٍ زاخر لأننا بذلك "نفقد شيئًا يستحيل بدونه أن يحكم حاضرنا ونُروض مستقبلنا على ذلك الشيء، هو الحاضر الذي يستحيل دونه المرور إلى الماضي لاستلهام تراثنا أو إلى المستقبل لاستجلائه"[2].

فلأننا نحمل من الماضي أعبائنا التي تعيق سيرنا نحو الأمام وتبطئ لنا طريقه، بل وتعيدنا في الكثير من الأحيان إلى الوراء، كما لا ننسى أنَّ مجتمعنا في نظر الفيلسوف قسطنطين زريق أنه يحمل قرابة أربع قرون أو أكثر من الانحطاط والتدهور منذ فترة الحكم العثماني، كما أنه قبل ذلك توقف أسلافنا وتأخروا عن كب الحضارة زُهاء نَيْفٍ من الزمن، بسبب تقويضهم لخطى العقل وسبيل الاجتهاد، بسبب تخليهم عن الفضائل الخلقية التي كانوا يتميزون بها.

[1] قسطنطين زريق، **الأعمال الفكرية الكاملة**، مصدر سابق، ص25.

[2] جابر عصفور، **إسلام النفط والحداثة ضمن الإسلام والحداثة**، ندوة مواقف، لندن، دار الساقي، 1990، ص177.

❖ **خلاصة الفصل:**

إنَّ أساس هذه الدراسة المشتملة على العقل بالرجوع إلى تراثنا، فنأخذ منه المعقول فقط ثمَّ نمزجه بالجانب الحضاري المعاصر، ولن نجد صعوبةً لأنَّ جانب الحداثة التي تعد جانباً متمسكاً ومعتزاً بالعقل، فإحيائنا للتراث يكون مُنطلقه العقل للتمييز بين المهم من غيره.

فما يمكننا أن ندَّعيه ويحق لهذه الأمَّة أن تفخر به هو ما نصنعه نحن لا غيرنا مهما كان نوعه وثمنه، لا ما يصنعه من يلينا، في سدًّا النقائص، وإحراز الفضائل دعم المكارم، التي تعزز إنسانيتنا، بهذا كانت دعوة زريق دوماً هي العودة إلى الماضي من خلال رؤى الحاضر وتطلعات المستقبل.

فقسطنطين زريق في بعض الأحيان يبلغ حدَّ الانغماس التام والخضوع الكلِّي له، بحيث ينصرف عنه سعياً على كل ما يبدو لنا من الماضي وما يتضمنه، فنقف عنده وقد تغنى بما يحويه، ثمَّ ننزع إل إحيائه من جديد، ببث كل روائعه في النفوس والقلوب لإحياء آثاره.

.

الفصل الثالث

من نحن والتاريخ

إلى نحن والمستقبل

- المبحث الأول: التاريخ عند قسطنطين زريق
  - أولاً: مفهوم التاريخ عند قسطنطين زريق
  - ثانياً: قسطنطين زريق وصناعة التأريخ
- المبحث الثاني: موقف قسطنطين زريق من التاريخ
  - أولاً: موقف المنكرين والمحجمين من تفسير التاريخ
  - ثانياً: موقف المؤيدين والموالي من تفسير التاريخ
  - ثالثاً: موقف قسطنطين زريق من تفسير التاريخ
- المبحث الثالث: الاتجاه المستقبلي قسطنطين زريق
  - أولاً: مفهوم المستقبل
  - ثانياً: معالم المستقبل العالمي
  - ثالثاً: قسطنطين زريق بين التقليد والإبداع
- خلاصـــة الفصل

❖ **تمهيـــــــد:**

لقد شكلت التحولات الحضارية الجديدة مناخا فكريا لولادة أنظمة فكرية تتسم بطابع الذكاء والتعقيد والتكامل في الآن الواحد. وهذه الولادة الذكية جاءت تعبيرا عن وعي إنساني جديد يتميز بطابعه النقدي المتمرد. وفي هذا السياق يمكن أن نقف عند الاتجاه المستقبلي لقسطنطين زريق في إشكالية العلاقة بين العقلانية والذاتية وإشكالية التكاملية.

إنَّ الموقف الذي اتخذه قسطنطين زريق من التراث كان مرتبطاً برؤية مستقبلية وذلك من أجل بلوغ حقيقة مستقبلية انطلاقاً من العلاقة المتصلة بين الماضي والحاضر والمستقبل.

فالتراث جزءٌ من الماضي، والإسهام فيه خلاصة إبداعنا، وللإبداع حقيقة بجذورها الضاربة في التاريخ، فالقيمة المكنونة تكمن في الجهود الماثلة في الحاضر برؤية أثرها في المستقبل.

سعى قسطنطين زريق جاهداً لإعادة تجديد أصالتها بالتاريخ، محاولاً استنباط مفهومها من مفهوم التاريخ ذاته.

❖ المبحث الأول: التاريخ عند قسطنطين زريق

• أولاً: مفهوم التاريخ عند قسطنطين زريق

تصب جُل الاهتمامات الرئيسية لقسطنطين زريق في كتابه "نحن والتاريخ" وإعادة تجديد وعينا بالتاريخ، وإدراك معناه كعلم ينظم في هذا الوعي، وتحديد ما يكتنفه من لُبسٍ وغموض.

يكمن هذا اللُبس الذي أُسند إلى الخطاب الغربي، في العديد من اللُّغات الأجنبية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية، إلى أخبار الماضي وطوارئه الرامية في تحقيقها على واقعها المعاش[1]، فتستغلُ عادة في التعبير عن الموروث الحضاري للإنسان وما يستند إليه من علوم وقوانين وضعية، حاول الغربيون في ذات السياق إلى التمييز بين هاته المصطلحات، من خلال تضاربها بين ما تحمله من معاني عن الماضي كالعلم مثلاً، وما يتحفظون به كالتاريخ، واستقر مما ارتأ إليه قسطنطين زريق ناشئًا عن الشعور البشري بالاتجاه الدَّقيق بين ما كان من الماضي وبين ما هو ماضٍ في حدِّ ذاته.

يطلق لفظة "التأريخ" بالهمزة المتوسطة في دُرج الكلمة إلى دراسة الماضي، أمّا عن لفظة "التاريخ" بالألف اللَّينة فتطلق على ما هو ماضٍ في حدِّ ذاته[2].

فكلمة التاريخ عنده تعني الماضي، وفي بعض الأحيان يَطلقها على المستقبل، وأحيانًا أخرى على الثني معاً، م يجعله يبني أفكاره بتعريفٍ آخر "للتاريخ" بقوله: "السعي لإدراكٍ شَويٍّ للماضي البشري ثمَّ يائه من جديد"[3].

فالتاريخ منطلقه الماضي بحيثياته الهادفة في المستقبل، من خلال ضبط المصطلحات وتحديد الغرض منها لإدراكها وِفق رُؤية مُستجدة.

---

[1] قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، مصدر سابق، ص13.

[2] قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، مصدر نفسه، ص14.

[3] قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، مصدر نفسه، ص49.

يرى قسطنطين زريق أنَّ التأريخ ينصبُ على الماضي بالتمييز بينها وبين مختلف المجهودات الفكرية الإنسانية، التي نفصل انفصالاً جازماً عن بين ما هو ماض، وما هو حاضر، وبين ما يدَّخره المستقبل المقتبس آثاره من الماضي، بتراكماته وتغيُراته الجذرية في شتى المجالات؛ كالطب، والنظم السياسية والفلسفة... ولا غِنَى لأحدٍ عن التاريخ، سواء أكان ذلك عالماً أو طبيباً أو فناناً أو أديب، كما لا يمكن أن ينفصل عن الماضي ومخرجاته المستقبلية، فالماضي الذي يجب أن يُتخذ موضوعاً للتأريخ هو الماضي البشري الذي يتم بالقراءة والتكوين معاً"[1].

لمَّا استوفى الماضي تكوينه الإنساني، انفصل هن كينونته بشكل طبيعي، فالماضي البشري لا يتدخل في جميع التغيرات الكونية والفيزيائية، إلاَّ فيما يتعلق **بالأنثروبولوجيا***، التي تهتم بتفرع الطبيعة البشرية إلى أجناسٍ متنوعة، يتسعُ مفهوم التاريخ يوماً بعد يوم من الاهتمام بالوقائع الحربية في حدِّ التطورات الاقتصادية والسياسية.

فالحياة البشرية في وحدتها المتنوعة تُعنى بمظاهر تطوره منذُ فجر الحضارة لتَكَوُن الإنسان في وسطه الاجتماعي إلى يوم النَّاس هذا.

إنَّ غاية التأريخ عند الفيلسوف قسطنطين زريق هي؛ "إدراك الماضي البشري بإدراك ما كان ... وكذلك ليس هو تصور الماضي كما يجب أن يكون أو كما نريده نَحنُ أن يكون"[2].

فالإدراك البشري يختلف عن التَوَهُم، والتَّخيُّل الذي قد يبدوا لمجتمعٍ ما يقوم على رمزية القدرات والمدركة للأشياء عن طريق الخيال، لتساوي فيما بعد بينهما في التحرر من كل ما يطرأ عليها من خرافات وأباطيل المرويات البالية منذ عقود من الزمن.

---

[1] قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، مصدر نفسه، ص50.

*هو علم متفرّع عن علم الإنسان إلى كل من علم الإنسان الاجتماعي الذي يدرس تصرفات البشر المعاصرين وعلم الإنسان الثقافي الذي يدرس بناء الثقافات البشرية وأداءها ووظائفها في كل زمان ومكان.

[2] المصدر نفسه، ص55.

تكمن حقيقة إدراك الماضي وإحيائه في سمة القراءة وطبيعتها التي نضيفها لتاريخنا المجيد، ومعرفة مدى أحقيته بمستقبل الأشياء، فهي عبارة عن معركة تحتقن فيها القيمة المدركة للوعي الجمعي، والإدراك الذي نسقطه على ماضينا، بمقدار ما يحي به الماضي على ما لخصه من وقائعٍ على مصائر القضايا البشرية قاطبة.

يعتبر قسطنطين زريق أنَّ كلَّ جهدٍ إيجابي إنساني في حد ذاته هو سعي إلى غاية ما ... والتاريخ هو من أقحم غيره من العلوم في البحث في خفاياها، فبقدر ما يكون الإخلاص جاداً ودقيقاً، بقدر ما تكون النتائج هادفة وفعَّالة للانطلاق بقُوة تعلُو صورته المثالية المعززة قِيمات لما مُسْتوحاةٍ من نتائجها المدركة بالبحث في الماضي البشري[1].

فكلُ جهدٍ إيجابي وإنساني يتمثلُ في الاجتهاد والمثابرة للتوغل في مجمل الجزئيات التاريخية التي هي محل السعي بمحرك التاريخ، فهو أيضاً أسلوبٌ للوقاية من خطر الانحرافات والانزلاقات الغير خاضعة لقواعد وضوابط ليلتزم حدودها، لذا فالتأريخ هو صناعةٌ مقصودة بتدريب معين لفئة محدودة.

[1] قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، مصدر نفسه، ص57.

- **ثانياً: قسطنطين زريق وصناعة التأريخ**

تعرف هذه الصناعة عند الغربيين بثيولوجيا التأريخ، أطلق عليها أسد بن رستم* مصطلح التاريخ ... المتميز بِسِمَة الحديث.

تستند صناعة التأريخ في فكر الفيلسوف قسطنطين زريق على عدَّة خطوات فيقول: "إنَّ الأسلوب الذي تنطوي عليه الصناعة التأريخية يَتكوَّن بسلسة من الجهود المحكمة تبدأ من اكتشاف الأثر ... وتنتهي بالتأليف التأريخي"[1].

فالبحث في المصادر المتعلقة بموضوع المؤرخ الذي يُعنى بإيلاء جانب وافر من الاهتمام بمختلف الفنون الأثرية المتمثلة في؛ النقوش، والأبنية والتماثيل ... ومن هنا كانت للمتاحف دور بارز في حفظ المخطوطات والفهارس الضخمة المرشد إليها.

أمَّا بالنسبة للفترة التي تليها فقد اعتبرها قسطنطين زريق أنها؛ "تفرض الصناعة التأريخية التي قد اختارها المُدوِّن لها في فترة زمنية ما كحقبة تاريخية من الحقب أو في زاوية من الزوايا المرجو دراستها، ثمَّ تتلو عملية التفتيش عملية الجمع"[2].

أي أنَّ الصناعة التأريخية تهدف هي الأخرى بدفع ما انبرى عليه المؤرخ من جهود وبحوث صقلت عليها قريحته، المتشبعة بروح البحث في المورث التاريخي والحضاري للمجتمع البشري على وجه الخصوص، والمتعلق بذات طبيعة البحث.

يقسم قسطنطين زريق عملية النقد إلى قسمين: "نقد خارجي؛ وهو التثبيت بنص الوثيقة لتي يعرف بها كاتبها، وزمانها ومكانها، ونقدٌ داخليٌ آخر تضمن المرويات المنتسبة للنصوص لفهم معناها، واتجاهاتها المقتصرة على المؤلف، وعن مدى تسرب الخطأ فيها بتأثير غير مهم"[3].

---

[1] قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، مصدر نفسه، ص68.

[2] مصدر نفسه، ص71.

[3] مصدر نفسه، ص73.

فللتمييز بين الوثائق الأصلية من غيرها ينبغي على الدراس لنسخها، العمل على دراسة ذلك المخطوط من حيث؛ الخط والحبر والصحيح منها من الخاطئ، اكتشاف مواطن الغموض فيها؛ كاكتشاف المدسوس، ومعرفة لغة العصر الذي كتب فيه، وعدم الاقتصار على ذكر ما ظهر منها من نصوص، بالإضافة إلى التحري عن مؤلفها، وطبيعته النفسية والاجتماعية، وعن مدى قربه من الواقعة التي سردها، وعن مدى مصداقيته في نقل المعلومة، وكذاك التقصي عن عدالته وإيفائه بالعهود.

إنَّ عمل المؤرخ في هذه المرحلة يكون أشبه ما يتمثل به من عمل المستنطق في الدوائر القضائية الذي يأتي بالشهود والرُّواة، فيستنطقهم ويحقق في شهاداتهم"[1].

فالمؤرخ يعمل عمل الدوائر القضائية، والمدعي العام كمامي الدفاع لإثبات صحتها التاريخية ويمكنه من سدِّ الفَجوة في بعض الأحداث المجهولة بناءً عل القياس والاستنتاج الاجتهاد.

أمَّا الخطوة الأخيرة لتي قال عنها قسطنطين زريق بأنَّها "مرحلة أدبية فنية يلجأ إليها المؤرخ ... وهي مِيزة المؤرخ في التعبير"[2].

فالتاريخ أدب وفن يعتمد على عرض ما توصل إليه ونشره بين النّاس[3].

يرى قسطنطين زريق أنَّ هذه الصناعة شديدة المطالب تقتضي معارف خاصة، مثل؛ العلوم والفنون المختصة بالآثار والنقوش والكتابات القديمة، وكذا النقود والوثائق فالأختام[4]، يُشترط في هذه الصناعة الإلمام بمُعظم اللُّغات المختصة بالتاريخ العربي، كالسريانية واليونانية واللاَّتينية وغيرها من اللُّغات الحيَّة؛ كالإنجليزية والفرنسية، بالإضافة إلى التجهيز بالمعارف

---

[1] قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، مصدر نفسه، ص74.

[2] مصدر نفسه، ص75.

[3] مصدر نفسه، ص75.

[4] مصدر نفسه، ص73.

الواسعة؛ كعلم الأجناس الطبيعي والحضاري، وكذلك الجغرافيا والاقتصاد، وعلم النفس الفردي الاجتماعي، وكذا علم الاجتماع والسياسة.

سلك المؤرخون من ناحية التخصص شأن باقي العلوم والغوص في سيرة أحد الشخصيات أو الأحدث وترك الكتابة العامَّة"، ممَّا فسح المجال لمن يتمرس على قواعد الصناعة التأريخية، التي كانت نتائجها ناقصة"[1]. ما جعل المؤرخون يَسعوْن لمُعالجة ما طرأ عليها من قصور، خاصة في ظل التهافت الغير ملحوظ للتواجد البشري فيها، على هاته العلوم.

يرى قسطنطين زريق "أنَّ الاستباق في الكتابة التأريخية في العام العربي كان من الأجانب، فالنهضة العلمية كانت حديثة في عالمنا العربي، فكانوا هم أوَّل من انتبهوا لمصادرنا التاريخية العربية، فاقتنوها قبل أن نقبل نحن عليها حفاضاً واقتناءً في مكتباتهم"[2].

وضع رزيق فضائل مزايا مطلوبة، مخصصة للصناعة التأريخية بمقومات منوط بها بجملة من الفضائل، المتمثلة في الجد والمثارة أساسين رئيسيين في عملية البحث التأريخي.

تطرق قسطنطين لمبدأي الشك النقد[3]، وذلك راجع لسببين؛ أولهما أن يقوم بعمل نقدي متأثر بالأهواء، وأنَّ بعض هذه الوثائق تكتسب بعد مُدَّة من الزمن.

يقول الفيلسوف زريق: "الشَّك المتزن والحس النقدي الواعي"[4]، فيجب أن يكون العمل المعتدل فيه دن غلوٍ ولا تطرف، والاتزان المطلوب هو ما وافق مزيد الدقة والأمانة في النقل والتفكير والتعبير.

---

[1] قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، مصدر نفسه، ص75.

[2] قسطنطين زريق، **أي غد؟** المركز الوطني للدراسات العربية، مج 2، د ط، بيروت – لبنان، 1998، ص30.

[3] قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، مصدر سابق، ص76.

[4] المصدر نفسه، ص75.

فمن أبرز المزايا المطلوبة أيضاً عند قسطنطين "مزية التجرد"[1]، فالتجرد من الميول والأهواء هذا ما يقودنا إلى الفضيلة المطلقة المنبثقة من الصناعة التأريخية كلها التي تكمن وراء جميع مكارم الفضائل الأخرى، فيقصد بها زريق "محبة الحقيقة"[2]، فالتاريخ قد استخدم لعدة أغراض؛ كالقصص الشيقة، ومرويات التقرب من الحكام وفي استخلاص العبر أيضاً.

والصفتان الأخيرتان عند قسطنطين زريق هما: "الشعور بالمسؤولية والتواضع"[3]، فيجب أن يتوفر هذان الشرطان في المؤرخ الجاد الذي يملأ بحثه بنبل عمله، وبالتواضع والمسؤولية يرتقي بعين العلم الصحيح.

فهذه الفضائل في مجملها فضائل خُلُقية وجوهرية بحتة، ليحسن استخدام التاريخ الذي يبعث بالروح القومة للنهضة العربية المستوقفة على تاريخ أصالتها الموجهة للخاصة الباحثين التمكنين وكذا المربين منهم، الذين تطابق حقائقهم مواقفهم المُعبر عنها في استنتاجات إيجابية.

يقول الفيلسوف قسطنطين زريق: "إذا أردنا أن نحيا ... لا بد لنا من أن نجابه التاريخ، لنرقى لمستوى الصناع، ومجابهة التاريخ من حيث كونه وسيلة للمجابهة، فبهذه الأخيرة يرتفع المستوى في الواقع العربي والإنساني على وجه الخصوص، بالمطابقة الدقيقة المستعصية على الناقد الباحث"[4].

فبالمجابهة ينبغي التحكم في مصائر الأمور متسائلين عن ماضيها الذي نسوق منه بنات أفكارنا نحو المستقبل الذي يهتم بحقائقها المتحكمة باسترجاعه وقت الحاجة.

---

[1] قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، مصدر نفسه، ص92.

[2] المصدر نفسه، ص95.

[3] المصدر نفسه، ص97.

[4] المصدر نفسه، ص101.

فالعمل التاريخي بالنسبة المبدع هو ما انبثق عن مشاعر وأحاسيس من الحاضر ورؤى المستقبل المتصل بالماضي والمدرك بالحكم والاستلهام ثمَّ الاستشراف"[1].

فالعمل التاريخي هو كل اجتهاد وما له صلة بالحاضر وعراقة المستقبل، وأصالة الماضي الذي يستلهم منه موروثه الحضاري المُدرَك لمعناه الحقيقي.

لذا فلا ينبغي الانشغال بالحاضر والمستقبل والتغني بالماضي إذا ما كان فيه محاولة لمحاورة الانجذاب نحو أفقها المستقبلية.

[1] ملحم قربان، **إشكالات النَّقد**، المؤسسة الجامعية لدراسات والنشر والتوزيع، ط 2، بيروت – لبنان، 1980، ص163.

❖ المبحث الثاني: موقف قسطنطين زريق من التاريخ

يمتاز العقل البشري من حيث كونه مكتفيًا بالمعرفة السليمة لما يحدث في محيطه الخارجي من حقائق، بالتطلع أكثر في مواقفها التاريخية الخاصة والعامَّة، بتحديد مسارات حدوثها ومقاساتها انطلاقاً من مختلف التغيرات التي تطرأ عليها في حضارة من الحضارات بسمة متبدلة في كُنْهِهَا، فلا يمكن فَهْمُهَا إلاَّ بفهم ماهيتها التي لا تستساغ إلاَّ بمعرفة تغيراتها ومن ثمَّ اتجاهاتها.

إلاَّ أنَّ هذه الطوارئ المقتصرة في جملة التبدلات الحضارية والأحداث التاريخية التي كانت ولا تزال محلَ اختلافٍ بين المؤرخين وعلماء الاجتماع، حول نمطية الأشياء الصورية التي تجري على تغيراتها وكذا تفسيراتها، وهو ما يحوز على نصيبٍ وافرٍ في كتابات قسطنطين زريق وتحديداً في كتابه "**معركة الحضارة**" محاولاً فيه عرض مختلف المواقف المفسرة للأحداث التاريخية، ليبرز بعد ذلك موقفه من ذات المسألة.

- **أولاً: موقف المنكرين والمحجمين من تفسير التاريخ**

يعتمد هذا الموقف في أساسه على عدم الرؤية الحقيقة والسليمة للأحداث التاريخية، بأيِّ "شكل من الأشكال المجتمعة أو المنظمة في شكل أنظمة تربطها أواصل التوافق والترابط فيما بينهم، بطريقة ذاتية ذات وحدة مستقلة"[1].

يثبت هذا الموقف مدى نفيه لأيِّ اتساقٍ أو انسجامٍ يجمع بين ثناياَ الحوادث التاريخية، كونها حدث وحيد يتشبث بطبيعتها الخاصة والمنفردة عن غيرها، فلا يمكن الجزم بالتأكيد على أنَّ هذه المتغيرات الحضارية لها صلة وطيدة بالأحداث التاريخية، التي تتحت شكلاً جديداً وفق رؤية مستجدة.

يؤكد أنصار هذا الموقف على "فردية الأحداث التاريخية، جرَّاء تعذر استنباط أهم القواعد الرئيسية وكذا القوانين التي تعنى بالتنبؤ بمثل هذه المواقف"[2].

يمثل هذا الموقف "**المؤرخ الإنجليزي فيشر**" في مقدمة كتابه "**تاريخ أوروبا**" إذ يقول في هذا الصدد: أما "إنِّي لا أرى سوى مفاجأة تتلوها مفاجأة؛ كموجة تلاقحها موجة"[3].

فهذه الحوادث التاريخية متجزأة فلا تكون نسيجاً جامعاً أو نظاماً شاملاً، بقدر ما هي أحداث فريدة طارئة يمكن التعميم فيها.

مَا يُؤخذ على أنصار هذا الموقف هو أنهم ينفون أن يكون للتاريخ عملية تكرار للوقائع ومجريات الأحداث، من خلال إعادة بعثها في محاور جديد برؤية مختلفة، وهو الموقف ذاته الذي تبناه القديس **أوغسطين** في كتابه "**مدينة الله**" حينما أكد على فردية الواقعة التاريخية، ومن

---

[1] قسطنطين زريق، **في معركة الحضارة**، ط 1، دار الملايين، بيروت – لبنان، 1964، ص147.

[2] أحمد محمود صبحي، **في فلسفة التاريخ**، مؤسسة الثقافة الجامعية، كلية الآداب واللغات، الاسكندرية – مصر، 1975، ص44.

[3] هيربرت فيشر، **تاريخ أوروبا في العصر الحديث**، ط 8، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة – مصر، 1119. **نقلاً عن:** أحمد محمود صبحي، **في فلسفة التاريخ**، مرجع سابق، ص45.

ثمَّة استحالة تكرارها في مشاهد أخرى، "فصلِبَ المسيح من أجل البشر، كي يفدي خطاياهم بحادثة فريدة لا تتكرر بالنسبة له ولا بالنسبة للفرد الآخر"[1].

يجتمع أنصار من كانوا مفسرين لمفهوم التاريخ موقف المنكرين والمحجمين عن رأيهم في هذا الشأن، إلاَّ أنه من كانوا عنه منكرين لاذوا بذكرهم قائلين؛ أنَّ مجريات الأحداث ووقائها بما أنها مضت فلن تعود، لأن سيرورة الزمن في تغير مستمر وفقا يلحق بها من طوارئ.

[1] القديس أوغسطين، **مدينة الله**، مج 1، ط 1، دار المعارف العلمية، 2004. **نقلاً عن**: أحمد محمود صبحي، **في فلسفة التاريخ**، مرجع سابق، ص170.

- **ثانياً: موقف المؤيدين والموالي من تفسير التاريخ**

في نظير الموقف الأول كان هناك موقف أخر في مقابله وهو موقف "أولئك الذين يرون أنَّ كلَّ حضارة من الحضارة تغير حسب نظامٍ واحد لا محايدةً عنه، وهذا التغيير الحضاري يتخذ صوراً مختلفةً لأفراد أو جماعات بصور الخط المتقدم من البداية إلى النهاية خلال مراحل معينة"[1].

ومن ثمَّ تكون الأحدث البشرية في مضمونها تغيرات حضارية تتبعُ خطأ أساسياً ذو بداية وغاية، فنهاية يصبوا إليها، فمثل هذه الصورة نجها عند بعض الفلاسفة وعلماء الاجتماع، أمثال: "**كوندريسيه، وهيغل، ماركس، وأوجست كونت**"

في مقابل الصورة التقدمية هناك صور أخرى للتقدم الحضاري؛ كالصورة الدورية التي تمثل هذا التغيير، متخذةً شكل ما يتجدد في دورة من الدورات، المتتابعة في أدوارها المحددة[2].

فهي واحدة من النظريات التي ترى "بأنَّ التاريخ يتجدد في تجدد دوراته الزمنية، فيُحدِثُ منها في كل ما يسبق حدوثه من قبل ذلك"[3].

فالحوادث التاريخية تحدثُ شكل دورات متعاقبة من الزمن.

يمثل هذه الصورة التي نجدها بارزة عند بعض "الفلاسفة والمؤرخين اليونانيين، أمثال؛ **أفلاطون، وأرسطو**، بالإضافة إلى الروماني **بوليبيوس***"[4].

شأنهم شأن البعض من المؤرخين والمفكرين المسلمين، مثل: "**ابن خلدون**" حينما تلكم في "**المقدمة**" عن "**أطوار الدولة**"، واضعاً بذلك نظريته القائلة بالتعاقب الدوري للحضارات.

---

[1] قسطنطين زريق، **في معركة الحضارة**، المصدر السابق، ص151.

[2] المصدر نفسه، ص ص165- 155.

[3] قاسم عبده قاسم، **فكرة التاريخ عند المسلمين**، ط 1، دار الملايين، بيروت – لبنان، 1994، ص30.

* **بوليبيوس:** مؤرخ وسياسي يوناني، ولد حوالي عام 200 ق.م. بمدينة ميغالوبولي (بأركاديا) اليونان وتوفي بها عام 120 ق.م. وهو يعدّ أكبر مؤرخي اليونان في عصره.

[4] مصطفى النشار، **من التاريخ إلى فلسفة التاريخ**، ط 1، دار العلمية، بيروت – لبنان، 1987، ص ص122 - 123.

لكن إذا كان أصحاب الصورة الأولى أقروا بأنَّ التاريخ لا بد من أن يعيد نفسه، وأصحاب الصورة الثانية اعتبروا بأنَّ التاريخ يتكرر في شكل مراحل ودورات، إلاَّ أنَّه كانت هناك صورة أخرى وحدت بين هاتين الصورتين وجمعت بينهما، في حين اعتبر أنصارها "أنَّ التاريخ قديمٌ، وجديدٌ متكرر، أبدأ ومختلف أبدأ في آنٍ واحد، ليعود به المعنى ولا يعود في معنى آخر، فعندهم كِلا المعنيين صحيح"[1]. فهناك أحداث تاريخية فريدة من نوعها، وفيها ما هو متكرر في الوقت ذاته.

- **ثالثاً: موقف قسطنطين زريق من تفسير التاريخ**

يصل قسطنطين زريق في هذا الموقف إلى التوفيق بين الموقفين السابقين، أو التجاوز إلى موقف ينبني عليه اعتقاده، في ظل ما يكتنفه من غموضٍ بأشد تعقيد مقدمًا فيها ملاحظاته بآراء بينية متضمنة في:

إنَّ موقف قسطنطين زريق من النظريات القديمة والحديثة التي ترسمُ مجال تغير الحضارات، أو الأحداث التاريخية الغير محددة بشكل أو نظام يضبطها "لأننا لا نرى الحياة تفرقًا وتنوعاً مُطلقيْن، وفوضى لا يجمعها أي مُلمٍ بها أو مُنظر"[2].

أمَّا بالنسبة للموقف الثاني فقد اعتبر زريق النظريات القديمة والحديثة التي ترسم تُغير مفهوم الحضارات بمجموعها في صورة محدودة مقتصرة على صورة معينة مستقيمة، أو دائرية لولبية، التي هي "وليدة الخيال، أو الحدس، أو العقيدة الدينية أو التأمل الفلسفي"[3]، وهو ما أكده في ذات السياق في كتابه "**نحن والتاريخ**" إذ يقول في هذا الصدد: "هذه لصورة نامة عن اعتقادات دينية، أو عقيدة فلسفية"[4].

---

[1] قسطنطين زريق، **في معركة الحضارة**، مصدر سابق، ص163.

[2] المصدر نفسه، ص149.

[3] المصدر نفسه، ص164.

[4] المصدر نفسه، ص139.

كما أنَّ القول بالحركة التاريخية أو الحضارية دورية مطلقة، "لا يستند المنطق أو الواقع، فالحياة في تغير مستمر، والأحداث البشرية في اختلاف دائم"[1].

حتى وإن كانت بعض هذه الأحداث قد تكررت بصورة رجعية إلاَّ أنَّها تحدث بنفس الطريقة السابقة.

بناءً على هذه الانتقادات التي قدمها قسطنطين زريق إزاء هذه المواقف فقد اتخذ منها موقفاً خاصاً بقوله: "... من التغيرات الحضارية التي ما يتبع فيها خطًا مستقيماً أو شبهه، متقدما في ذلك باستمرار لمدة معينة؛ طويلة أم قصيرة، بما تقدم منها وما تأخر"[2].

فالأحداث التاريخية ما يسير منها بشكل معين دائم ومستقيم متجه إلى غاية محددة، ومنها ما يسير وفق شكل تكراري دائري.

ففي التغيرات الحضارية وللأحداث التاريخية ما يتكرر منها في شكل دائري، وهذا ينفي دحض الفكرة القائلة بتخللها بعض القفزات والتجاوزات.

[1] قسطنطين زريق، **في معركة الحضارة**، مصدر نفسه، ص168.

[2] المصدر نفسه، ص 169.

❖ المبحث الثالث: الاتجاه المستقبلي قسطنطين زريق

منذ بضع سنوات أصدر قسطنطين زريق كتاباً وَسَمَهُ بـ "**نحن والتاريخ**"، حاول من خلاله تبيان مبادئ الصناعة التاريخية والتفكير التأريخي، مع أنَّ هذا الكتاب كان متجها في طريق الماضي، فكان شغل قسطنطين زريق الشاغل هو نظر في مكنونا الماضي والتقييد بمشكلاته، إذ لم يتخلَّى عن الحاضر أو المستقبل وانحاز إلى الاهتمام بمطالب المستقبل في كتابه "نحن والمستقبل"، فيقول في مقابلة له في **جريدة السفير*** (ماي، 1944): "في الماضي وصفتي مؤرخ، كنت أعتقد أنه بالرجوع إلى خفايا الماضي لاستعادتها، فإنَّه في ذلك خلاصٌ للمجتمع وانتقاله من نقطة إلى أُخرى، إلى واحدة هي أفضل ما كانت عليه من قبل، إلاّ أنه وبعد مرور مُدَّة من الزمن تغير تفكيري الذي كنت أدافع عنه عن ذات السياق، ولم أعد أهتم لفكرة استعادة الماضي، الذي لي بالضرورة التخلي عنه بقدر ما هو وسيلة لرؤية المستقبل وفهم بشكل أوسع وأقرب إلى ما هو في صورة الحاضر"[1].

لقد أدرك قسطنطين زريق بأنَّ دراسة الماضي مرتبطة ارتباطا وثيقًا بالحاضر ومد رؤيته للمستقبل، لذلك ألغى فكرة الالتفات إلى الماضي وسحب هذا الالتفات نحو مستقبل، فلاقتباس من الماضي بما يخدم كُلاً من الحاضر والمستقبل معًا، فدراسته أساس للفهم السليم والرؤية الجيدة.

---

* **جريدة السفير**، صحيفة يومية سياسية لبنانية ناطقة باللغة عربية صدر العدد الأول منها في 26 مارس 1974، واستمرت حتى إعلان توقفها عن الصدور في 31 ديسمبر 2016 بسبب أزمة تمويل.

[1] قسطنطين زريق، **حوار مع المستقبل**، (مقابلة مع السفير)، نقلاً عن مسعود ظاهر: قسطنطين زريق والمنهج المستقبلي في فهم التاريخ، قراءة في الفكر العربي، مرجع سابق، ص 138.

- **أولاً: مفهوم المستقبل:**

بعد هذه المداخلات في الفكر العربي المعاصر يندرج كإشكالٍ في معظم القول المعرفية متنوعةً كفلسفة التاريخ التي لا تهتم بالماضي فقط، وإنَّما يكون بالاهتمام بالحضر في محاورته للمستقبل، بنظرة استشرافية هادفة، ليظهر من خلالها ما يعرف بعلم المستقبليات، أو لدرسان المستقبلية، التي هي حقول معرفية حديثة جدًا، كونها أنها نشأت من رحم الديناميكية الغربية المعاصرة، على تنوع الجغرافيا، والسياسة كذا الاقتصاد والثقافة والمجتمع[1].

في النصف الثاني من القرن العشرين ظهر في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية علم خاص يعنى المستقبل يعرف بـ "**علم المستقبليات**"، كأحد الحقول الأساسية للمعرفة العلمية"[2].

فأصبحت هذه الدراسات المستقبلة مرتبطة بالنظرة العلمية والاتجاه المستقبلي، الذي يزداد بالأهمية المسيطر عليها بالنظرة العلمية في حياة مجتمع ما"[3].

فالتهافت لمثل هذه الدراسات المتعلقة بالنظرة العلمية لسيادة الأسلوب المتفرع بدورها في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية.

إنَّ هذه الدراسات العلمية المستقبلية هي: "محاولة استشراف الصور المختلفة للمستقبل برؤية معرفية تاريخية هادفة ... فالوعي يقضيه المستقبل الذي يبدأ بالدراسة للأهداف المعلن عنها"[4].

فهذه الدراسات تأتي تحديد مدى فهم الصورة بمعالم المستقبل، لتبدأ الدراسة العلمية للواقع الحالي وكيفية نشوئه مع تطور التاريخ وتغير في مستوى توقعاته المستقبلية،

---

[1] حمد جدي، **محنة النهضة ولغز التاريخ في الفك العربي الحديث والمعاصر**، مركز الدراسات للوحدة العربية، بيروت – لبنان، 2005، ص 160.

[2] مسعود ظاهر، **الدولة والمجتمع في المشرق العربي**، دار الآداب، بيروت – لبنان، 1991، ص 148.

[3] فؤاد زكريا، مرجع سابق، ص59.

[4] إسماعيل صبري وآخرون، **صور المستقبل العربي**، مركز الدراسات للوحدة العربي، بيروت – لبنان، 1985، ص13.

لقد تزايد اهتمام الغرب بالدراسات المستقبلية المتزايدة بشكلٍ مستمر باعتبارها أساس الدولة والمجتمعات الغربية، فارتبطت بالاقتصاد والديموغرافيا والعلم، والتقنية والسياسة ...

فهذا الاهتمام الكبير علم لمستقبل في الفكر الغربي المعاصر الذي بدأ استشرافه بالمستقبل الغربي المعاصر المرتبط بكل طرق المتنوعة بين التاريخ ودراسة التاريخ وكذلك من حيث دراسة المستقبل والعمل السياسي، والعلم والتكنولوجيا، في عالم الغد، اعتمادا على نقد معرفة الحدود في العالم المعاصر[1].

وفي ذات الموضوع حث النقاش والبحث في الغرب المعاصر حول الدراسات المستقبلية لها، والتجند لها معرفيا واستراتيجيا، بالاعتماد على مناهج عليمة حديثة ومعاصرة.

في الغرب الحديث تقوم الدراسة المستقبلية على معطيات علمية واقتصادية وطبيعية وأخرى سياسية، فدرس المستقبل هي حقيقة استشرافية للمستقبل في جميع حالاته[2].

لدراسة علم المصطلح المستقبلي الذي "شاع في الغرب الرأسمالي وظهر ... ببعض عناصر وجزئيات لها صورة خاصة بالمستقبل ذا المدى الطويل"[3].

ارتبط هذا المصطلح أساساً بالثورة العلمية والحداثة التكنولوجية التي شهدتها أوروبا، إلاَّ أنَّ أوروبا الشرقية استعملت المصطلح للوصول إلى الخلفية المعلوماتية المستقبلية للمدى الطويل، وهذا لا يمنع امتداد تأثيرها في حركة الفكر العربي والإسلامي المعاصر.

إنَّ مفهوم المستقل عند العرب موجود ... في معجم، ولعل أبرز ما شمله من كلمات مستقاة من التاريخ؛ "الأيام، الدهر، الحال الزمن، العد، الأمس..."، فهذا الاستشراف العربي

---

[1] حمد جدي، **محنة النهضة ولغز التاريخ في الفك العربي الحديث والمعاصر**، مرجع سابق، ص 160.

[2] إسماعيل صبري وآخرون، مرجع سابق، ص45.

[3] المرجع نفسه، ص49.

والإسلامي للمستقبل تولد نتيجة الأزمنة والبحث في تقرير المصير، الذي لم يتولد بالنسبة للغرب، فكان نتيجة أسباب معرفية تاريخية"[1].

فالفكر العربي المعاصر منخرط بأشكال مختلفة في التفكير والمستقبل، دارسا الماضي وناقدا للحاضر.

برز قسطنطين زريق باستشراق المستقبل من خلال كتابه: "**نحن والمستقبل**" الذي استهله بشعار "ليكون لنا مستقبل وليكون مستقبلاً أفضل"[2].

لقد بحث زريق في هذا الكتاب عن أصالة الاهتمام بالمستقبل وجذور التاريخ رأو أنَّ الاهتمام بالمستقبل أمر ليس بالغريب وإنما "هو مغروس في الطبيعة الإنسانية التي قد لازمت الانسان منذ نشأته الأولى، خلال حقبته التاريخية على اعتباره أنَّها إحدى أهم المميزات الأساسية التي يتصف بها الإنسان"[3].

فالاهتمام بالمستقبل له أبعاده الضاربة في التاريخ الإنساني الذي اشتدَّ وانتشر في مختلف الأوساط الاجتماعية الحديثة، بتطلعه نحو المستقبل بالتفاتة الماضي، ليُظْهِر تفاعله من جديد بين نظرته التَطلُعية من جهة، وبين ما هو ماضٍ من جهة أخرى، فالنَّظرة المستقبلية هي نتاج قلق عن مصير قد عُرف بهذا التطلع، خلال تاريخه الطويل عرف قسطنطين زريق عدَّة تنبؤات محدد في النقاط التالية:

---

[1] يوسف الحوراني، **فلسفة التاريخ ومستقبلها في الفكر العربي المعاصر**، ع 120، 1981، ص 45.

[2] قسطنطين زريق، **نحن والمستقبل**، مصدر سابق، ص14.

[3] مصدر نفسه، ص17.

1- النَّمط البدائـــــــــي:

يقوم هذا النمط على اتصاله بالآلهة أو بالأرواح أو بالجن أو سواها من قوى الغيب، وإمَّا على الاستدلال بالظواهر الطبيعية كمواقع النجوم وحركاتها، فاختصَّ بهذا التنبؤ لأشخاص أو فئات معينة في المجتمع، كالكهان والعرَافين والمنجمين، والسحرة والأطباء ...الخ"[1].

فهذا النمط يظهر لدى الشعوب البدائية التي ترجع الحوادث إلى قوى غيبية أو ظواهر طبيعية أو بشرية.

2- النَّمط العقائـــــدي:

وهو النمط الآخر من أنماط الاهتمام بالمستقبل الذي "يقوم على عقائد أو نظريات شاملة إلى الكون والحياة التي تنسحب على الماضي والحاضر والمستقبل"[2].

يتصور الإنسان الكون بمجله ويتساءل عن مآله، ومصيره، انطلاقاً من الإيمان عقيد معينة.

3- النَّمط التخيلـــــي:

يتمثل في تصور التداخل في الرؤيا المستقبلية إذ أنَّ الغاية منه حَثْ الناس على اكتساب ما أمكن من صفات المجتمعات المثالية المتخيلة، وبالتالي السعي المستقبلي فكراً وعملاً[3].

يندرج ضمن الرؤيا المستقبلية الرامية في بناء مجتمع مثالي مبني على التخيل.

---

[1] قسطنطين زريق، **نحن والمستقبل**، مصدر نفسه، ص66.

[2] المصدر نفسه، ص70.

[3] المصدر نفسه، ص95.

فهذه النقاط الثلاث من أهم النقاط التي تمثلت في الاستطلاعات المستقبلية في الأزمنة الماضية، فإنَّ هناك نمط آخر وهو الذي ركز عليه الفيلسوف زريق، لأفراد ذوو أهمية في النمط العلمي الريادي بالتنبؤ المستقبلي.

4- النَّمط العلمي الريادي:

يتميز هذا النمط بجملة من الاهتمامات المستقبلية، حسب رؤية قسطنطين زريق لأصحابه، "يحاولون أن يظلوا متفحصين لواقعهم المعاش بتغيراته الفاعلة في المجتمع وتفاعلاتها، فيميلون في هذه الاتجاهات المستقبلية لاستقراء الأحداث وتغيراتها في نتائجها المقبلة"[1].

فهذا النوع يكون مرتبطًا بالوقائع القائمة والحقائق المكتشفة بالاعتماد على الاستقراء من أجل توقع احتمالات للمستقبل، عن طريق استقراء الأحداث للمستقبل استطلاعاً علمياً.

حسب قسطنطين زريق فإنَّ الحاجة إلى التنبؤ العلمي الريادي "ضرورة ملحة يفرضها شارع التغير وشمولية على المستوى الكوني، وتزداد خطورة المبتكرات العلمية وتصاعد قدرة الكفاءة الإنسانية، وسرعة التواصل والترابط بين الشعوب"[2].

فهذه كلَّها تمثل ملامح المستقبل حسب قسطنطين زريق، التي تبدوا فيتمثل مع الرؤية البعثية لآفاق المستقبل القريب.

---

[1] مسعود ظاهر، مرجع سابق، ص42.

[2] قسطنطين زريق، **نحن والمستقبل**، مصدر سابق، ص140.

- **ثانياً: معالم المستقبل العالمي**

يتكون مجتمع الأفراد والجماعات من العلاقات والسلوكيات المشتركة بينهم بين بني جنسهم، في أواصل تاريخية تضبطها عادات وتقاليد وأعراف منوطة بأحكام وضعية وأخرى شرعية، فقد اعتاد علماء الاجتماع والتأريخ أن يصنفوا المجمعات حسب النِّظام الأبوي والنظم التبقراطي والنظام الاقطاعي، والنظام الديموقراطي، والنظام لرسمالي والنظام الشيوعي"[1].

يفكر الإنسان منذ البداية في أحواله التي يسعى بشكل مستمر لتحسينها، أو توزيع نظرته ومشاكله بين العنصر البشري النظام في حد ذاته، يقول قسطنطين زريق: "الواقع أن ينظر في أحوال المجتمعات نظراً دقيقًا، فمن الصَّعب إن لم نقل من المستحيل أن نفصل فصلاً تامًا بين العنصر البشري والنِّظام، فالمجتمع كيان عضوي يتألف منهما معًا"[2].

لقد عرض قسطنطين زريق هذين الجهدين الإصلاحيين خلال التاريخ فيقول: "كان الإصلاح إصلاح الأشخاص يتخذ سبيلين رئيسين: الدين والدين، والتربية، أمَّا إصلاح الأنظمة قد كان سبيله السعي إلى تغيرها لما هو أفضل لها بالدعوات الفكرية وبالحركات السياسية والاجتماعية"[3].

فالجهد لإصلاح الأشخاص أبسق للتاريخ من الجهد لإصلاح الأنظمة.

يقول قسطنطين زريق "إنَّ إصلاح الأوضاع البشرية يأتي عن طريق تطهير النفوس من رذائلها، وتنمي بذور الفضائل فيها بإرضاعه المشيئة الإلهية والخضوع لأحكامنا"[4].

منذ مطلع العصر الحديث كان التعليم قليل الشأن في إحداث التغيير، لأنه لم يهدف إلى التغيير في النظم التي لها أثر في تغيير الأشخاص سواء من حيث العدد والنطاق أو من

---

[1] قسطنطين زريق، **نحن والمستقبل**، مصدر نفسه، ص186.

[2] المصدر نفسه، ص313.

[3] المصدر نفسه، ص314.

[4] المصدر نفسه، ص315.

حيث المحتوى والاتجاه، فلا يخلوا هذا الحكم من الاستثناءات الهامة في تاريخ الحضارة البشرية "وأهمها أثر هذه الحضارة عند الإغريق لا سيما في الجهود التعليمية التي قام بها سقراط، وأفلاطون وأرسطو، في الحلقات والمؤسسات التي صمت تلامذتهم وأتباعهم فيها"[1].

فلا شك في أنَّ هذا التعليم قد بدل العقول أيقظ النفوس وكان من أهم بواعث التبدل والإحياء في العصور التالية، فما كان للحضارة الحديثة من قيام واتخاذ الشكل المناسب في التراث الفكري التعليمي الذي انحدر مع هؤلاء القادة، ومن أتباعهم الذين أخصب عليهم فعل جيل بعد جيل، كون نَّ هذا الموروث الديني قد استفحل شغله في موكب الحضارة منذ قرون خلت، لاسيما في الوسطى منها، وفي المشرق الإسلامي تحديداً، وكذا في الغرب المسيحي، واستمرت سيرورتها في التغيير حتى مطلع العصر الحديث.

انطلاقاً من هذه المعالم المختلفة يصل قسطنطين زريق إلى اتخاذ موقفاً محدداً من هذه القضية الكبرى، إذ يقول في هذا السياق: "لا شك في أنَّ متطلبات التحرر والتنمية، التي تقضي بوجود سلطة مركزية تستطيع اتخاذ حزمة من القرارات والمراسيم السريعة ... وهذا ما هيأته طبيعة السلطة في صناعة تأثيرات خارجية عليها متمثلة في الانقلابات الثورية وكذا الحراك الشعبي الغير مشروط"[2].

إنَّ دعوى النُّظم الثورية القائمة على الوحدة التَّحرُرِية التقدمية والمُمَثلة لمصلح الجماهير وأنَّها تُخَالف أسبقية قِوَى التَّحرر فيها.

فانحياز قسطنطين نحو الاتجاه المستقبلي الذي استند على قواعد التنبؤ العلمي الريادي كشرط أساسي لعدم المبالغة في التنبؤ بسبب التبدلات المتسارعة للتاريخ على المستوى الكوني،

---

[1] قسطنطين زريق، **نحن والمستقبل**، مصدر نفسه، ص323.

[2] عمر فروخ، **كلمة في تعديل التاريخ**، ط 1، دار العلمية، بيروت – لبنان، 1977، ص18.

الذي ينبع من فهم عميق بحركة مستمرة، فالتاريخ هو العلم الذي يُعنى بتطوُّر المجتمع، والاتجاه المستقبلي المتحكم في حركة التاريخ وصيرورة الماضي الذي هو طريق المستقبل[1].

[1] مسعود ظاهر، مرجع سابق، ص57.

- **ثالثاً: قسطنطين زريق بين التقليد والإبداع**

يسعى الفيلسوف قسطنطين زريق لقراءة تاريخية جديدة للتقعيد لرؤية حضارية أصيلة ترقى في مستواها بفكر الأمة العربية الإسلامية إلى مصاف التقدم والتطور على مختلف الأصعدة انطلاقاً من تحليل دقيق للحقب التاريخية التي تعاني منها هذه الأمَّة في جُل المجالات الحياتية المتعددة وعلى كافة أطرها.

اتجه زريق في مشروعه النَّهضوي بالدعوة للتجديد في ميدان الوعي التاريخي العربي، ثائراً على تلك الكتابات المجحفة في حق التاريخ المقتصر على الماضي وحده، مُبيناً أنَّ التاريخ ينسحب من الماضي الذي هو جزء من الحاضر الصانع لفحوى أحداثه برؤية المستقبل ومن هنا "رسم اتجاه تاريخي حديث يهتم بمجال الكتابة التاريخية عن المجتمع العربي في الاتجاه المستقبلي له، وإليه يُعزى الفضل في إرساء معالم الأطر السامية لذات الاتجاه وتطوره"[1].

كما يقف قسطنطين جاهداً على رسم الحدود المثالية للإطار المنهجي المُضْطَلِع بمعالجة قضايا المستقبل في إطار "حيِّزٍ زمني للواقع الاجتماعي والسياسي، فالاقتصادي والثقافي للمجتمع العربي بعينه"[2].

فمن هذا الواقع ينحاز قسطنطين زريق نحو الاتجاه المستقبلي الذي كان نتيجة طبيعة الأزمة للأمة العربية، فكانت دعوته إلى عادة التجديد للوعي القومي لهذه الأزمة من خلال التاريخ، لأنَّ ذلك من بين الاهتمامات الأولى للتساؤل عن مصير المستقبل، فاعتبرت دعوة قسطنطين زريق لدراسة المستقبل "نوعاً من الخروج عن المألوف في الدراسات التاريخية العربية، وكان عليه أن يحدد خياره المنهجي الجديد القائم على أسس وضوابط علمية"[3].

---

[1] مسعود ظاهر، مرجع نفسه، ص121.

[2] سمير كرم، **الواقع العربي وتجاوزه بين منظور العلم والأخلاق، (مجلة المستقبل العربي الصادرة عن مركز الدراسات الوحدة العربية)**، ع 1، 1978، ص168.

[3] مسعود ظاهر، مرجع سابق، ص144.

ومن هنا تكمن قدرة قسطنطين زريق في الريادة بين ثلة من المفكرين النهضويين العرب الذي تمسكوا بهذا النوع من الدراسات، ما جعل ريادته في هذا المجال تكون "من أوائل المؤرخين العرب الذين انحازوا إليها في مقام المؤرخ أو الباحث في مكنون الماضي"[1].

فلا يمكن التقليل من حجم المساهمة العقلانية العلمية التي قدمها قسطنطين زريق في خطابه الحضاري الذي يعتبر من "أبرز ما أنجبت النهضة العربية المعاصرة، خاصةً بما ساهم به من جهدٍ ملحوظ، خاصةً في إشراكه لقيم العقل والعلم في حياتنا العلمية، فكان ذَا فضلٍ أيضاً في تبيان الطريق الفعَّال لتحرير العقل العربي من التخلف التاريخي الراهن، للانطلاق إلى المستقبل، فلا مستقبل عنده دون عقل وعلم مبدعين"[2].

فرؤية قسطنطين الحضارية ترتكز على الإيمان بالعقل والعلم معاً، في استشراق المستقبل والتطلع إليه، وبذلك كان الحق رائداً ورفداً في الكتابة التاريخية العربية ذات آفاق المستقبلية.

---

[1] مسعود ظاهر، مرجع سابق، ص57.

[2] سهل فرح، **الخطاب الفلسفي المعاصر في بنان – إشكالية العقل العلم الإيمان، (من كتاب الفلسفة العربية المعاصرة)**، مركز الدراسات الوحدة العربية، د ط، بيروت – لبنان، د ت، ص275.

❖ **خلاصـــة الفصل**

من خلال ما تم ذكره سابقاً –في هذا الفصل– عن مفهوم التاريخ والتأريخ، وعن علاقتهما بالماضي والحاضر وفي تشكيلهما للمستقبل نستخلص ما يلي:

- ✓ يميز قسطنطين زريق بين التاريخ الذي هو ماضٍ في حدِّ ذاته، وعن التأريخ المتمثل في الدراسة الذاتية للماضي، من حيث كوْنِه ماضٍ، المنفصل في احصائه عن دراسة الماضي للحاضر والمستقبل.
- ✓ بفضل الجهود المبذولة من طرف الفيلسوف العربي قسطنطين زريق، وبعد توليه البحث مختلف الأبعاد التاريخية في صناعة المستقبل لم يعد التأريخ حكراً على الماضي وحده.
- ✓ تعد القضية الحضارية القضية المركزية الأولى التي تُعنَى بدراسة الحقائق الإنسانية وفق أطره الاجتماعية الراهنة، القائم على مبدأيْ؛ الأمانة في التقصي، والصدق في النقل.
- ✓ يعتقد قسطنطين زريق في موقف له من استنباطات أُجرت على النظريات المفسرة للتاريخ، أنَّ التاريخ يعيد نفسه من ناحية، في حين آخر لا يمكن أن يتكرر.
- ✓ اعتمد قسطنطين زريق على منهج قويم خاص بمنهج الكتابة والمتمثل في الاتجاه المستقبلي، المنهج المستقبلي.
- ✓ المستقبل نظر زريق احتمالات اشتملت على رؤية ما، وهو كل ما نصنعه نحن للمستقبل انطلاقاً من الماضي وبأفكار الحاضر.

الخاتمة

❖ خاتمـــــــة:

من خلال ما تمَّ ذكره في دراستنا الموسومة بـ "**فلسفة التاريخ عند قسطنطين زريق**" نستنتج ما يلـــــي:

- إنَّ فلسفة التاريخ تستمد مادتها المعرفية الخام من التاريخ الذي هو جوهر الوجود البشري، بمنهج تاريخي قويم يختلف بطبيعة الدراسة فيها عن طبيعتها التاريخية المرتكزة عن الماضي في فلسفته للأشياء، من خلال ما يتصل به برؤية مستجدة للحاضر والمستقبل معاً.
- لقد كان موقف قسطنطين زريق من التراث كونه ما تعامل به مع التراث من وجهتين، فلم يهمله كليَّةً، ولم يعدد العمل به بالكلية، ل كان فيها موقف التوفيق بينهما، فما يمثل الماضي من حيث ما هو ماضٍ، وبالتفاعل مع الحاضر الذي سيكون ماضياً فيما بعد، إلاَّ أنَّه عبارة عن تطلع المستقبل.
- انتقد قسطنطين زريق الكتابة التاريخية العربية المعتمدة على الماضي وحده، في حين أنَّ التاريخ عند لا يقتصر على الماضي وحده، فهو دراسة الماضي، من حيث ارتباطه بالحاضر الذي هو طريق المستقبل.
- سعى قسطنطين زريق لاتجاهه في مشروعه النهضوي للتجديد الوعي التاريخي العربي للتحرر من الأزمة التي تعاني منها الأمة العربية قاطبة.
- وضع زريق نظريته في التفسير التاريخي على بُنى معيارية لرؤية التاريخ المرجو إعادته من نفسه، بناءً على تصويبات أو تعديلات متمثلة في تعليلات مضبوطة بالتعددية الحكمية على الأشياء التي قد تطرأ على مختلف الأحداث التاريخية.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكـــــــريم رواية ورش عـن نافع

❖ **قائمــة المصـادر والمراجـــــع:**

❖ **قائمــة المصـادر:**

1. ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق عبد الله درويش، دار يعرب، دمشق – سوريا، ط 1، 1425هـ – 2004م.
2. آدموند ولسون، **تاريخ الفكر الاشتراكي المعاصر من فيكون إلى لينين**، تر: يونس شامنس، د ط، بيروت – لبنان، 1972.
3. إميل برهييه، **تاريخ الفلسفة اليونانية**، تر: جورج طرابيشي، ج 1، دار الطليعة، بيروت – لبنان، ط 1، 1982.
4. برتراند راسل، **حكمة الغرب**، تر: فؤاد زكرياء، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ج 1، د ط، د س.
5. جورج الطرابيشي، **معجم الفلاسفة**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط3، 2006.
6. جوستاف لوبون: **فلسفة التاريخ**، ترجمة عادل زعّتر، مؤسسة هنداوي للنشر، القاهرة، 2020.
7. رالف والدو أمرسون، **مقالات أمرسون السلسلة الأولى والثانية**، تر: أمل الشرقي، دار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1999.
8. روزنثال، فرانز، **علم التاريخ عند المسلمين**، ترجمة: صالح أحمد العلي، بغداد، مكتبة المثنى، ونيويورك، مؤسسة فرانكلّن، 1963م.
9. عبد الرحمن ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، اعتنى به: أبو صهّب الكرم، ط 1، بيروت – لبنان، الأفكار الدولة، 2005.

10. عبد الكريم الشهرستانى، **الملل والنحل**، تحقيق أمير علـي، وعلي حسن فاعـود، دار المعرفة، بيروت – لبنان، د ط، د ت.

11. فرانكلين بارو، **الفكر الأوربي الحديث في القرن الثامن عشر**، ترجمة أحمد حمدي محمود، د ط، ج 2، 1988.

12. القديس أوغسطين، **مدينة الله**، مج 1، ط 1، دار المعارف العلمية، 2004.

13. قسطنطين زريق، **الأعمال الفكرية العامة**، مج 4، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، 1994.

14. قسطنطين زريق، **الوعي القومي: نظرات في الحياة القومية المتفتحة في الشرق العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية ومؤسسة عبد الحميد شومان، الأعمال الفكرية العامة للدكتور قسطنطين زريق، مج: 1، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 3، بيروت – لبنان، 2001.

15. قسطنطين زريق، **أي غد؟** المركز الوطني للدراسات العربية، مج 2، د ط، بيروت – لبنان، 1998.

16. قسطنطين زريق، **في معركة الحضارة**، ط 1، دار الملايين، بيروت – لبنان، 1964.

17. قسطنطين زريق، **ما العمل**، مركز الدراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت – لبنان، 1998.

18. قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، دار العلم للملايين، د ط، 1959.

19. قسطنطين زريق، **نحن والمستقبل**، دار العلم للملايين، ط 1، بيروت – لبنان، 1980.

20. هيربرت فيشر، **تاريخ أوروبا في العصر الحديث**، ط 8، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة – مصر.

21. هيغل، **العالم الشرقي، محاضرات في فلسفة التاريخ**، تر: إمام عبد الفتاح إمام، مج 2، دار التنوير للنشر، المكتبة الهيغلية، ط 3، بيروت – لبنان، 2007.

22. والتر ستيس، **التصوف والفلسفة**، تر: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، 1999.

23. والتر ستيس، **تاريخ الفلسفة اليونانية**، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، 1894.

❖ **المعاجم:**

1. أندري لالالند، **المعجم الفلسفي النقدي**، تعريب أحمد خليل، ط 2، دار عويدات، بيروت – لبنان، 2001.
2. المذكور إبراهيم، **المعجم الفلسفي**، الهيئة العامَّة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة – مصر، د ط، 1402هـ – 1982م.
3. المذكور إبراهيم، **المعجم الفلسفي**، الهيئة العامَّة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة – مصر، د ط، 1402هـ – 1982م.
4. نبهان يحي محمد، **معجم مصطلحات التاريخ**، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، الأردن – عمان، د ط، 2006.

❖ **الموسوعات:**

– دانييل ليتل، **فلسفة التاريخ**، تر: طريف السليطي، **(موسوعة ستانفورد للفلسفة الموسوعة)**، دار الحكمة، 2020.

❖ قائمــة والمراجـــــع:

1. أحمد محمد صحبي، **في فلسفة التاريخ**، الإسكندرية – مصر، 1975.
2. أحمد محمود صبحي، **في فلسفة التاريخ**، مؤسسة الثقافة الجامعية، كلية الآداب واللغات، الاسكندرية – مصر، 1975.
3. إسماعيل صبري وآخرون، **صور المستقبل العربي**، مركز الدراسات للوحدة العربي، بيروت – لبنان، 1985.
4. التيمومي الهادي، **مفهوم التاريخ وتاريخ المفهوم**، دار محمد علي للنشر، تونس، ط 1، 2003.
5. جمال رجب سيد، **أبو البركات البغدادي وفلسفته الإلهية**، مكتبة وهبة، القاهرة – مصر، ط 1، 1996.
6. عبد الرحمن عبد الله الشيخ في كتابه: **المدخل إلى علم التاريخ**، دار المريخ، جامعة الملك سعود، الرياض – المملكة العربية السعودية، ط 1، 1405هـ – 1985.
7. عبد الغني عماد، **قسطنطين زريق الداعية والمفكر القومي العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، 2012.
8. عزيز العظمة، **قسطنطين زريق: عربي للقرن العشرين**، د ط، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت – لبنان، 2003..
9. عطيات أبو السعود، **فلسفة التاريخ عند فيكو**، د ط، مؤسسة الهنداوي، المملكة المتحدة، 2021.
10. عمر فروخ، **كلمة في تعديل التاريخ**، ط 1، دار العلمية، بيروت – لبنان، 1977.
11. فؤاد زكريا، **الصحوة الإسلامية في ميزان العقل**، دار الوفاء للدنيا للطباعة والنشر، الإسكندرية – مصر، ط1، 2006.
12. قاسم عبده قاسم، **فكرة التاريخ عند المسلمين**، ط 1، دار الملايين، بيروت – لبنان، 1994.

13. محمد عبد الغني حسن، **جرجي زيدان**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970، ص5.

14. محمد محفوظ، **الإسلام، الغرب وحوار المستقبل**، المركز الثقافي العربي، د ط، الدار البيضاء، 1998، ص33.

15. مسعود ظاهر، **الدولة والمجتمع في المشرق العربي**، دار الآداب، بيروت – لبنان، 1991.

16. مصطفى النشار، **من التاريخ إلى فلسفة التاريخ**، ط 1، دار العلمية، بيروت – لبنان، 1987.

17. مصطفى صادق الرافعي، **تاريخ آداب العرب**، ج 1، راجعه وضبطه، عبد الله المنشاري ومهد البحقيري، مكتبة الإيمان، المنصورة، د ط، د ت.

18. ملحم قربان، **إشكالات النَّقد**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 2، بيروت – لبنان، 1980.

19. هاشم يحي المالح، **المفصل في فلسفة التاريخ**، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط7، 2001.

20. وديع واصف مصطفى، **ابن حزم وموقفه من الفلسفة والمنطق والأخلاق، المجمع الثقافي**، (أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة)، د ط، د ت.

21. يوسف الحوراني، **فلسفة التاريخ ومستقبلها في الفكر العربي المعاصر**، ع 120، 1981.

22. حسن عثمان، **منهج البحث التاريخي**، دار المعارف، بيروت – لبنان، 2015.

23. حمد جدي، **محنة النهضة ولغز التاريخ في الفك العربي الحديث والمعاصر**، مركز الدراسات للوحدة العربية، بيروت – لبنان، 2005.

24. رأفت غنيمي الشيخ، **فلسفة التاريخ**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، 1988.

❖ **المجلات:**

1. جاسم سلطان، **فلسفة التاريخ، الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ، (مجلة مشروع النهضة سلسلة أدوات القادة)**، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، العدد 3، ط 4، 2010.
2. سمير كرم، **الواقع العربي وتجاوزه بين منظور العلم والأخلاق، (مجلة المستقبل العربي الصادرة عن مركز الدراسات الوحدة العربية)**، ع 1، 1978.
3. محمد جلوب الفرحان، **في الأبستمولوجيا الفلسفية العربية، (مجلة أوراق فلسفية جديدة")** (مع هوامش شارحة للمنبت الفلسفي الأبستمولوجي)، ع 9، 2013.
4. مفيد الزيدي، **الاستشراق والتراث العربي نحو منهجية علمية، (مجلة اليرموك، أربد)**، ع 71، نيسان – أبريل، 2001.
5. النشار مصطفى، **فلسفة التاريخ، (مجلة سلسلة الشاب، شهرية)**، ع 14، ط1، شركة الأمل للطباعة النشر، 2004.

❖ **المداخلات والندوات:**

1. جابر عصفور، **إسلام النفط والحداثة ضمن الإسلام والحداثة، (ندوة مواقف)**، لندن، دار الساقي، 1990.
2. زياد الحافظ، **قسطنطين زريق والفكر القومي، (مداخلة بمناسبة مئوية ولادة الدكتور قسطنطين زريق)**، في ندوة نظّمها النادي الثقافي العربي بمناسبة المعرض السنوي للكتاب العربي، بيروت– لبنان، 10 كانون الأول 2008.
3. زياد حافظ، **البنية الاقتصادية في الأقطار العربية وأخلاقيات المجتمع، (ندوة نقاشية نظمتها المنظمة العربية لمكافحة الفساد)**، بيروت – لبنان، في 24 تشرين الأول 2008. ونشرت الورقة والمداخلات النقاشية مطلع 2009.
4. غانم هنا، وآخرون، **(ندوة حول عناصر الحداثة في الفكر العربي المعاصر)**، ع 61، السنة 16، شتاء 1998.

5. غانم محمد الحفو، "**محاضرات في فلسفة التاريخ**"، ألقيت على طلبة السنة الثالثة، كلية الآداب – قسم التاريخ، جامعة الموصل، 1986 – 1987.

❖ **الرسائل والأطروحات الجامعية:**

1. عبد الرحمان بدوي، **نيتشه**، وكالة المطبوعات، الكويت، ط 5، 1970.

الملخــص:

نتناول في هذه الدارسة التي بين أيدينا "**فلسفة التاريخ عند قسطنطين زريق**" كروئ ومنطلقات في تأسيسه لمشروع نهضوي معاصر يمس العالم العربي والإسلامي، بالرجوع إلى تاريخ الفلسفة، انطلاقا من اليونان وصولا إلى الفلسفة الحديثة والمعاصرة تأليفا وترجمتا وتحقيقا، هذا فضلا على تبنيه الفلسفة الوجودية كمنهج وأساس لمشروعه، أما فيما يخص الجديد والإبداع في فلسفة قسطنطين زريق هو محاولته إيجاد نزعة تنويرية في الوطن العربي بالتأريخ والبحث من أجل بلوغ حقيقة مستقبلية انطلاقاً من العلاقة المتصلة بين الماضي والحاضر والمستقبل، وذلك في باقة فكرية موسومة بسمات الدقة والموضوعية.

وفي هذا السياق يمكن أن نقف عند الاتجاه المستقبلي لقسطنطين زريق في إشكالية العلاقة بين العقلانية والذاتية وإشكالية التكاملية.

الكلمات المفتاحيـــة: فلسفة التاريخ، قسطنطين زريق، الماضي والحاضر، المستقبل.

Summary:

In this study, we examine "Constantine Zurayk's Philosophy of History" as a narrative and starting point for his establishment of a contemporary renaissance project that touches the Arab and Islamic world. We review the history of philosophy, beginning with Greece and continuing through modern and contemporary philosophy, through authorship, translation, and investigation. This is in addition to his adoption of existential philosophy as a method and foundation for his project. What is new and innovative in Constantine Zurayk's philosophy is his attempt to create an enlightening trend in the Arab world through history and research, with the goal of attaining a future truth based on the interconnected relationship between the past, present, and future. This is achieved within an intellectual framework characterized by precision and objectivity.

In this context, we can consider Constantine Zurayk's future direction in addressing the problematic relationship between rationality and subjectivity and the problem of complementarity.

Keywords: Philosophy of History, Constantine Zurayk, past and present, future.

قائمة المحتويات

رقم	فهـــرس المحتـــويات	الرقم
	الملخـــــــص	
	شـــكر وعـــــرفان	
	قائمـــــة المحتويات	
01	**مقدمـــــة**	
	الفصـــــل الأول: ..... مدخل مفاهيمي	
02	**تمهيـــد**	**5**
03	**المبحث الأول: مفهوم فلسفة التاريخ**	**6**
04	مفهوم الفلسفة	**7**
05	مفهوم التاريخ	**9**
06	مفهوم فلسفة التاريخ	**10**
07	**المبحث الثاني: فلسفة التاريخ في الفكر العربي**	**13**
08	فلسفة التاريخ عند العرب القدامى	**14**
09	فلسفة التاريخ عند العرب المحدثين	**19**
10	**المبحث الثالث: فلسفة التاريخ في الفكر الغربي**	**22**
11	**خلاصـــة فصل**	**33**
	الفصل الثاني ..... الملامح العامة لفلسفة التاريخ عند قسطنطين زريق	
12	**تمهيـــد**	**35**
13	**المبحث الأول: مصادر الفكر عند قسطنطين زريق**	**36**
14	**أولاً: المصادر الفكرية لدى قسطنطين زريق**	**37**

16	ثانياً: الوعي القومي	40
17	ثالثاً: تداعيات الفكر عند قسطنطين زريق	43
18	المبحث الثاني: التراث وفلسفة التاريخ	45
19	أولاً: ثقافة التراث	46
20	ثانياً: التراث والاستشراق	48
21	المبحث الثالث: رؤية قسطنطين زريق للتراث العربي	50
22	أولاً: الرؤية التاريخية لقسطنطين زريق في التراث العربي	51
23	ثانياً: سمات الحداثة في فكر قسطنطين زريق	53
24	خلاصة الفصل	58
	الفصل الثالث..... من نحن والتاريخ إلى نحن والمستقبل	
25	المبحث الأول: التاريخ عند قسطنطين زريق	61
26	أولاً: مفهوم التاريخ عند قسطنطين زريق	61
27	ثانياً: قسطنطين زريق وصناعة التأريخ	64
28	المبحث الثاني: موقف قسطنطين زريق من التاريخ	68
29	أولاً: موقف المنكرين والمحجمين من تفسير التاريخ	70
30	ثانياً: موقف المؤيدين والموالي من تفسير التاريخ	71
31	ثالثاً: موقف قسطنطين زريق من تفسير التاريخ	72
32	المبحث الثالث: الاتجاه المستقبلي قسطنطين زريق	74
33	أولاً: مفهوم المستقبل	75

34	ثانياً: معالم المستقبل العالمي	80
35	ثالثاً: قسطنطين زريق بين التقليد والإبداع	82
36	خلاصـــة الفصل	84
39	خاتمـــــــــة	86
40	قائمـــــــة المصادر والمـــــــراجع	88
41	ملخـــص	106